# نَوائِبُ الدَّهْرِ

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: نَوائِبُ الدَّهْرِ
تـأليـــــــف: حفيظ شاركي
القـطـــــع: 14*20
تصميم داخلي: سالم عبدالمعزسواح
سنـة النشـر: 2024
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 17106 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 534 - 3

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

9 789778 445343

# نَوائِبُ الدَّهْرِ

مجموعة قصصية

حفيظ شاركي

2024

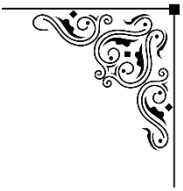

# إهداء

أناديك أنت، أنت الذي لأول مرة،
تفتح عينيك مستقبِلًا نور الحياة،
تتأهّبُ لامتطاءِ فَرَسِ النِّزال والمعركة،
تخشى الوقوع وتنشد النجاة،
أناديك لأهديك من تجارب البشر،
ما يقيك العثْرَة ويُيَسِّرُ لك الظَّفَر.

حفيظ شاركي

# درسٌ من الحياة

في الغرفة التي أتمدَّدُ فيها، كانت الحرارة كافية أن تحرمني من النوم، ليس في تلك الليلة فحسب، وإنما لِلياليٍ متتاليات، فقساوة فصل الصيف لا تغرس مخالبها إلا في أجسام الضعفاء المساكين، الذين عجزوا عن اقتناء المُكيِّفات والمبرِّدات..

تناولتُ هاتفي الذي كان موضوعًا على الطاولة بجانب سريري.. حُرِم الراحة هو الآخر من كثرة التردُّد إليه، فلا ألبث أن أفارق العبث في شاشته مُتصفِّحًا مواقع التواصل الاجتماعي، أو مُتفرِّجًا على فيديوهات اليوتيوب إلى أن أرجع إليه، ناشدًا في كل ذلك استجلاب النوم، لكن هيهات هيهات أن أفوز بمطلبي.

وأنا أُمرِّر المنشورات في الفضاء الأزرق، استوقف انتباهي إشعار علبة الرسائل، الذي رنَّ مُنبِّئًا بدخول رسالة جديدة.. فتحتُ على التوِّ العلبة، فإذا بي ألمح رسالة حديثة من مرسِلة غريبة.. كانت فتاة جميلة كما تظهر على صورة حسابها، كتبت إليَّ رسالتها بالإنجليزية..

شرعتُ في قراءة الرسالة على شوق، ولِمَ لا وأنا الذي كنتُ السَّبّاق لإرسال الرسائل إلى الأجنبيات، باحثًا عن إحداهن علَّها تكون النجاة التي أنشدها من حرقة البطالة والعطالة..

كانت رسالتها قصيرة، مضمونها يُختَصَر في طلب الصداقة من أجل التعاون.. أصابتني الحَيرة، فكيف لفتاة جميلة من دولة تحكم العالم أن تلجأ إلى شخص عادي مثلي، ومن دولة عربية نامية، تطلب منه الصداقة والتعاون!!

قبلَ الرد عليها، تصفَّحتُ معلوماتها الشخصية، فإذا بها تقطن بأمريكا، وبالضبط بمدينة واشنطن، ثم تأمَّلت صفحتها فإذا بها ترجع لسنوات عدة، وتضم عشرات المنشورات المصحوبة بصورها..

كانت في الغالب ترتدي ألبسة عسكرية.. تبيَّن لي أنها من قوات حفظ السلام الدولية، والتي تُعرَف بأصحاب الخُوَذ الزرقاء..

استغربتُ، كيف لعسكرية في مثل هاته المهمة تجد الوقت للكتابة، واستغربتُ كيف وصلتْ إلى حسابي، ولماذا اختارتني أنا!!

لم تمكث على الخط كثيرًا، فلقد أرسلتْ رسالتها وخرجتْ على التوِّ..

أجبتها برسالة مقتضبة، رحَّبتُ بفكرتها، واستأذنتُ منها أن أستفسِر عن كيفية حصولها على حسابي.

انتظرتُ قرابة ساعة علِّي أحظى بالجواب، لكنها لم تدخل من جديد..

رجعتُ أتصفَّح منشوراتها فإذا بها عبارات يشع منها نور التضامن والتآزر وإسعاد الغير.. قضيتُ ليلتي أتساءل وأبني أحلامي على احتمالات الأجوبة.. ماذا لو تطوَّرتْ عَلاقة الصداقة إلى زواج؟ ماذا لو هاجرتُ للعيش في أمريكا، وهي البلاد التي لم أكن أحلم بالعيش فيها.. كيف سأعيش مع أمريكية غير مُسلِمة؟ وعسكرية كذلك؟ ماذا سيقول الأهل والأقارب عنِّي؟

بقيتُ هكذا إلى أن غلبني النوم..

كان أول شيء قُمتُ به بعد استيقاظي في الصباح هو تفقُّد علبة الرسائل التابعة للفيسبوك، لكن لسوء حظي لم أجد ردًّا على رسالتي، وكما علمتُ من المعلومة التي تظهر أسفل اسمها على الماسِنجر أنها كانت على الخط قبل تسع ساعات، وهي اللحظة التي أرسلتْ إليَّ فيها الرسالة.. اطمأننتُ وقتئذ؛ لأنَّي تأكَّدتُ أنها لم تُطالِع رسالتي بعد.

بقيتُ طول النهار أتردَّد إلى علبة الرسائل، متلهِّفًا للجواب الذي سيُلقى على أنظاري، فهل سيطابق توقعاتي أم سيصدمها كما فعلتْ مئات الرسائل قبله.

فجأة، سمعتُ الرنة التي تصحب الإشعار بورود رسالة جديدة.. فتحتُ بسرعة البرق علبةَ الرسائل فإذا برسالة آتية من عندها، فتحتُها فإذا بها كالتالي:

مرحبًا سعيد، أشكرك على قبول الصداقة، لا شك أنك استغربتَ كيف حصلتُ على حسابك، لا تقلق بهذا الشأن، فأنا وإياك معجبان بصفحة جمعية التضامن الأمريكية، والتي كما تعلم تُعنَى بمساعدة المحتاجين في العالم قدر المستطاع.. كنتُ أطالع تعليقاتك على أعمال الجمعية فكانت تشُدُّني بأسلوبها ولباقتها، لكن كان تأثُّري كبيرًا بمنشورك الأخير على الصفحة، خاصة أنك يتيم كما هو الشأن بالنسبة إليَّ، فقررتُ الاتصال بك وبناء علاقة صداقة تكون السبيل إلى التعاون فيما بيننا..

سأُعَرِّفك بنفسي، أنا كريستي ديميلو، عمري خمسة وعشرون سنة، يتيمة الأبوين، تربَّيتُ في كنف والدي إلى أن بلغتُ سن السابعة عشرة؛ ثم بعدها بسنة قررتُ الانضمام إلى الجيش الأمريكي، فظللتُ به خمس سنوات، ثم قررتُ قبل سنتين الانخراط في قوات حفظ السلام؛ حيث تُوجَد الآن بدولة مالي..

لدينا هنا شبكة الإنترنت ضعيفة ومتقطِّعة، كما يُمنع علينا الاتصال هاتفيًّا إلا مع الآباء أو الأبناء وبحضور رؤسائنا المباشرين، وباستعمال الهاتف الرئيسي المُخصَّص لهذه المهمة.

نقضي النهار في الخدمة باحثين عن النزاعات هنا وهناك لنقف حاجزًا بين الفريقين، أو نقضيه في التدريب، وبالليل نستسلم للعياء والاسترخاء، وفي

ثغراته نتصفَّح خِلسة مواقع التواصل الاجتماعي، وقد نكتب رسائل مقتضبة للأصدقاء والمعارف.

حدِّثني بمزيد من التفاصيل عن نفسك، وماذا تنوي فعله في المستقبل. اعتنِ بنفسك، وإلى اللقاء.

بعد إتمام قراءة الرسالة، اطمأنَّ قلبي لَمَّا علمتُ كيف وصلتْ إليَّ، وأما منشوري على صفحة الجمعية فكان كالتالي:

أنا من المتابعين المخلِصين لصفحتكم على الفيسبوك، ومعجب بالخدمات التي تُقدِّمها جمعيتكم في خدمة الإنسانية، وبما أن إعاناتكم ومساعداتكم تصل إلى كل الناس في مختلف البقاع من العالم، فأرجو أن أكون من المحظوظين الذين تلتفتون إليهم وتُقرِّرون مدَّ يد المعونة إليهم..

نحن ثلاثة إخوة، أنا وبنتان، أنا أكبرهم سِنًّا، حيث عمري الآن قد تخطى السادسة والعشرين، أيتام الأب.. والدتي مريضة مُقعدة، حصلتُ مؤخرًا على دبلوم في فنون الطهي، لكنِّي لم أجد عملًا، وأرغب في فتح محل خاص بصنع الحلويات وبيعها، لكني مُعْوِز وأحتاج إلى رأسمال وتشجيع..

قررتُ كتابة منشوري على صفحتكم لَمَّا رأيتُ مساعداتكم لبعض الشباب الحاملين مثل هذه المشاريع، فلعل حظي ينال نصيبه من فضلكم وَجُودكم العظيم.

انغمستُ في الكتابة أردُّ على طلبها، راسِمًا لها صور حياتنا بالتفصيل بعد وفاة الوالد الذي كان يشتغل صبَّاغًا، حيث سقط من الطابق الثالث لمَّا كان يصبغ واجهة إحدى العمارات، فقضى تاركًا وراءه زوجة وثلاثة أبناء، ولم تُعوِّض شركة التأمين والدتي إلا بما يكفي مصروف البيت مدة ثلاث سنوات، فأصبحنا بعد ذلك نعاني الفقر والحاجة، مِمَّا جعل والدتي تشتغل طاهيةً في الأفراح والولائم، وتكافح من أجل تَقْويتنا وتدريسنا، إلى أن أقعدها مرض السكري حيثُ أصِيبت بالعمى؛ لأنها كانت لا تبالي بنصائح الأطباء، ولا بالمواظبة على اتِّباع الحِمية..

أخذتُ زمام المسؤولية، وانقطعتُ عن الجامعة حيث كنت أدرس في شعبة الأدب الإنجليزي، فشرعتُ أعمل هنا وهناك بالموازاة مع دراسة فنون الطبخ ليلًا بأحد المعاهد حتى نلتُ الدبلوم بعد ثلاث سنوات، لكني إلى الساعة لم أجد عملًا في المطاعم أو محلات بيع الحلويات، مِمَّا جعلني أُفكِّر في إنشاء مشروع خاص بي ما دمنا نملك بيتًا فسيحًا يصلح لذلك.

وهكذا فصَّلتُ لها ظروف حياتنا ومعيشتنا، وأسهبتُ في التعريف بي وبأفراد أسرتي، ثم أنهيت رسالتي بطلب معرفة المزيد عن نشأتها وحياتها، وكذا أمانيها المستقبلية، فردَّتْ بعد ساعات، وفي نفس التوقيت السابق تقول:

عزيزي سعيد، اسمح لي أن أناديك هكذا؛ لأني أشعر باختراقك أحجبَة فؤادي، وليس هذا بعيب ولا عجيب، فغزوُ العواطف لا نملك كبحها، وتولُّدها من أول نظرة أمر ذائع ومشتهِر..

لقد وُلِدتُ لأم مسلمة وأب مسيحي، جمعهما الحب في مستشفى حيث يعملان معًا، فأمي كانت مُمرِّضة، وأبي كان طبيب أطفال.. تواعدا على الزواج، لكنهما لقيا رفضًا من كلا العائلتين بسبب أنهما لا ينتميان إلى الدين نفسه.. لكن كانت الغلبةُ لهما، حيث هربا إلى مدينة بعيدة بعد أن خططا للانتقال بعملهما إليها، وهناك عاشا في انفراد سعيدين..

بعد سنة، كُنتُ كثمرة حب تخرج إلى الوجود، لكن كنت كتلك الثمرة التي قُطِعَتْ شجرَتُها بعد قطفها مباشرة.. فلقد تُوفِّيَتْ أمي بعد وضعي بعدة دقائق، وبقيتُ في رحاب والدي يعتني بي ليلًا بعد عودته من العمل، وبالمربِّيات اللواتي يُشرفن على الاعتناء بالرّضَّع والأطفال نهارًا، حتى بلغتُ من الكِبَر سبع سنين، فاعتمدت على نفسي وكنت أوازن بين الدراسة والاهتمام بشؤون البيت، إلى أن تُوفِّي والدي بحادثة سير وعمري سبع عشرة سنة.

شعرتُ بوحشة عظيمة، وادلهمَّ ظلام العيش في عينيّ، فتمنيتُ الموت كي ألحق بوالديّ وأستريح من عناء الحياة التي غدتْ لا تساوي عندي شيئًا..

أيْ سعيد، لقد أثّرتْ فيّ ظروف معيشتك، ولولا أنني في مهمة لا أعرف بالضبط متى تنتهي، لحاولت زيارتك في بلدك، وتقديم المعونة إليك، فأنا أملك من الأموال ما يكفي لتغطية مصاريف مشروعك وزيادة، بل يكفي لنعيش معًا طوال حياتنا، لكني بذهني وفؤادي بجانبك إلى أن يأتي اليوم الذي نلتقي ونجتمع فيه.

أعتذر اللحظة على فراقك، فأجفان عينيّ تنطبقان بغلبة النوم، وإلى أمل السماع منك قريبًا.. طابت أوقاتك.

تنوَّرت الغرفة التي أُوجَد داخلها بعد إتمام الرسالة، وأحسستُ بنسيم بارد يخترق المكان ويصرع الصَّيْهَدَ الذي كان منتشرًا قبل ذلك.. هل حقًّا سنُغادِر هذا الضيق الذي نعيشه؟ هل آن الأوان كي ينفكَّ عنا الإملاق والإفلاس؟ هل بلغنا العتبة القصوى للصبر فانبثق عند مستواها الفوز والظَّفَر؟ لكن مِن أين لها بتلك الأموال؟ هل هو إرث ورثته؟ أم هو حصاد مدة اشتغالِها عسكرية؟

أسئلة راودتني، فكادت تشغلني عن الفرحة التي غمرتني..

عُدتُ إلى منشوراتها القديمة أُدقِّق فيها، فلم أرَ إلا ما يدل على صدق كلامها.. سيارة والدها وهي تجلس بجانبه، لم تكن كأية سيارة، بل كانت من

نوع رولز رويس، أما البيت الذي كانت تُصَوِّر به أحداث يومها، فكان عبارة عن فيلا ضخمة، قد أحاطت بها الأشجار والأزهار من كل جانب..

بدأت أشعر بالغيرة وأنا أشاهدها في بعض صور عيد ميلادها رِفقة شباب حاملين كؤوس خمر، بين مُتَغَزِّل لفتاة، وبين معانق لأخرى.. فكانت سيول الغضب تسري في داخلي دون أن أعرف لها سببًا حقيقيًّا..

تبادلنا الرسائل مرات ومرات، وتوطَّدت العلاقة بيننا، وشمختْ عاطفة الحب فينا، حتى اقتنعنا أننا خُلِقنا لبعضنا، ولم نترك أي موضوع إلَّا تحدَّثنا عنه..

أقنعتها بالابتعاد عن شرب الخمر وحضور الملاهي المختلطة، كما عرَّفتها على الإسلام الذي كانت تجهله وأصبحتْ قاب قوسين أو أدنى من اعتناقه.. أكَّدتْ لي تخميناتي حول ثرائها؛ حيث إنها ورِثتْ كل ممتلكاتِ والدها، فتمكَّنتْ من بيعها ووضعتْ كل أموالها في البنك باسمها..

أخبرتني أنها لا ترغب في الرجوع إلى أمريكا خوفًا من عائلة والدها، فبمجرد سماعهم بوفاته، شرعوا في البحث عنها رغبةً في الحصول على نصيبهم من المال، بدعوى أن البيت لم يكن من ممتلكاته الشخصية، بل هو من إرث والدهم، الذي كان قد فوَّته لوالدها لسبب من الأسباب.. إلا أنها ترفض هذه الرواية، وتقول بأنها مجرد أكاذيب؛ لأن والدها لم يُحدِّثها يومًا بهذا الحديث..

ونحن في تواصل دائم، كاد قلبي يتوقَّف فرحًا حينما أخبرتني في إحدى الليالي أن مجموعتها ستُنهي خدمتها في مالي بعد شهرين، حيث سيُعوَّضون بمجموعة أخرى، وأنها تنوي زيارتي في بلدي، لكن لا بُدَّ من أعمال تقوم بها قبل ذلك، كنقلها للأموال التي عندها بالبنك إليّ، وحتى يتسنَّى لها فعل ذلك يلزمها الحصول على رقم بنكي تنقل إليه أموالها، والذي هو بالطبع رقم حسابي أنا، كما يلزمها كذلك طلب رخصة التوقُّف عن العمل مدة ثلاثة أيام على الأقل؛ لأن الوصول إلى المدينة في مالي شاق وبعيد..

ولكي تتمكَّن من إرشاء المسؤول عنها للحصول على هاته الرخصة، وكذلك لتأدية مصاريف الرحلة، ومصاريف الترتيبات البنكية، يلزمها ثلاثة آلاف دولار، وهي لا تتوفَّر عليها، ولا يمكن سحبها من البنك في مالي إلا بعد مرور أيام من وضع الطلب، بل حتى المسؤول عنها وقائد الرحلة، طلبا منها الأموال أوَّلًا..

بقيتُ حائرًا كيف تريد الأموال وهي معزولة وسط الجبال قبل أن تبدأ رحلتها إلى المدينة؟ وأنا مشغول البال، جاءتني رسالة منها، تطلب مني أن يكون الإرسال بعملة البيتكوين، وهي العملة الرقمية التي تُيَسِّر التعامل بين اثنين في العالم بأسرع وقت ممكن ودون أي قيود.

لم أكن سلفًا أسمع بهذه العملة، ولا أعرف ما المقصود بالعملة الرقمية.. فباشرتُ مواقع الإنترنت أتعرَّف عليها وبكيفية إرسالها..

على غير عادتي، استيقظتُ باكرًا في صباح اليوم الموالي، فأخبرت والدتي بالموضوع، فامتزج في روعها شعور الفرحة بالفَرج الذي سيطرق بابنا قريبًا، بشعور الخوف إن كان هذا كمينًا يُنصَب لنا، إلا أنني أخذتُ أُطمئِنها وأُهدِّئها..

بقينا نُفكِّر كيف نجمع هذا المبلغ، فقررنا بيع بعض الحُلِي لوالدتي، واقترضنا من أخوالي وبعض أقاربي حتى جمعناه كاملًا..

فتَّشتُ عن بعض الأشخاص الذين يبيعون عُملة البيتكوين في مدينتي، فدلوني على شخص موثوق.. التقيته في مكان خالٍ، فأرسل إلى محفظتي الرقمية عملة البيتكوين، ولَمَّا تأكَّدنا من دخولها إلى المحفظة، منحته ثلاثة آلاف دولار..

بنفس طريقة الإرسال، أرسلتُ مباشرة العملة إلى كريستي، ثم أتبعتها برسالة مني أطلب منها أن تُخبِرَني مجرد وصول العملة إليها..

بالليل، وفي نفس الساعة التي أتلقَّى فيها رسائل كريستي، وصلتني رسالة قصيرة منها تقول:

لقد وصلني المبلغ، أشكرك على ذلك.. نلتقي فيما بعد.

استغربتُ لِقِصَر الرسالة، فهي لم تُعوِّدني هذا الكمّ من الحروف، لكن قلتُ ربما هي مشغولة بالتحضير لرحلة الذهاب إلى المدينة.. فانشغلت بمواضيع أخرى على هاتفي ثم استسلمتُ للنوم.

بالصباح، كُنتُ أفتح علبة الرسائل، فنقرتُ على صورتها لأراجع الحوارات بيننا، إلا أنني صُدِمتُ لَمَّا وجدتُ كل رسائلها قد مُحِيَت، ووجدتُ العبارة التالية كُتِبَت في الأسفل: هذا الشخص غير موجود على الماسِنجر.

وحتى المنطقة المخصَّصة لكتابة الرسائل لها أصبحت غير مُفعَّلة، وإمكانية الدخول إلى صفحتها غير متاحة..

شعرتُ بشعر رأسي ينتصب عاليًا، وبدقات قلبي يكاد صوتها يُسمَع من خارج الغرفة.. لقد فهمتُ على التوِّ أنها قد جمَّدت حسابي، وأني قد خُدِعْتُ.. بقيتُ في غرفتي دون حركة.. حائرًا كيف سأواجه والدتي بالخبر..

اتصلتُ بصديق لي، كان معروفًا بإلمامه بالمعلوميات وخبايا الإنترنت، فطلبتُ لقاءه على الفور، ولحسن الحظ كان في عُطلة..

خرجتُ للقائه دون أن أُشعِرَ والدتي بذلك.. التقينا فقصصتُ عليه القصة.. أمسك رأسه بيديه وشرع يُحرِّكه ذهابًا وإيابًا مُتَحسِّرًا، ثم قال:

- لماذا لم تخبرني قبل هذا يا مُغفَّل؟
- لم أشُك في أنها كاذبة، خاصة أن صفحتها كانت قديمة.

- قِدَمُ الصفحة ليس دليلًا على صدق صاحبها يا صاح.. فقد يكون السارق قد انتحل شخصية مالكها لا غير.

- وكيف أعرف أن الشخصية مُنتحَلة؟

- يمكنك أن تعرف ذلك في مدة لا تتجاوز خمس ثوانٍ، اطلب من مُحاورِك اتصالًا عن طريق الفيديو، سيمنتع ويفِرُّ دون رَجعة.

- لم يخطر ببالي هذا.

- كان يمكنك التريُّث قليلًا.

- المهم، ليس هذا وقت اللوم والعتاب، فهل مِن حل؟

- مهلًا، يحتاج الأمر إلى كثير من البحث.

أخذ صديقي يبحث عن اسمها في شبكة الإنترنت، إلى أن عثر عليها في تطبيق الإنستغرام، ويا لَلعجب، كانت نفس الصور ونفس المنشورات، لكن أفهمني صديقي أن هذه هي الشخصية الأصلية، أما الأخرى على الفيسبوك فكانت فقط تنتحل هذه الصفة، وحسابها ما هو إلا مجرد حساب مُزوَّر..

لَمَّا رجعنا إلى الفيسبوك، وشرعنا في البحث باسمها، لم نجد شيئًا، لأن خاصية إيجاد اسمها عن طريق البحث كانت مُعطَّلة، وهذا حتى لا يُستطاع التبليغ عنها..

كتبنا رسالة لها على الإنستغرام وأخبرناها إن كان لها صفحة على الفيسبوك لإنجاز بعض المهام، هكذا حتى نجعلها تُقِرُّ بوجود الصفحة، إلا أنها أكَّدت لنا عدم امتلاكها أي صفحة على الفيسبوك.. حينها أخبرناها القصة، فردَّت متأسِّفة أن نكون نحن الآخرون ضحية خداع هؤلاء النصَّابين.

وبعد تواصُلنا كثيرًا مع إدارة الفيسبوك أكَّدوا لنا أن أقصى ما يمكنهم فعله هو إغلاق صفحتها، أما عدا ذلك فهو ليس من اختصاصهم..

رجعتُ إلى البيت مصدومًا، أحمل أثقال الخيبة، وأجرُّ حبال النكسة.. أكبر همِّي هو كيف أقي والدتي صدمة هذا الخبر..

بعد أيام كان الخبر يصل إليها مُتدرِّجًا من طرف أخوالي الذين هدَّأوا من روعها، وخفَّفوا من اضطرابي، وطمأنونا أنهم لا ينتظرون مِنَّا ردًّا لأموالهم.. فكان هذا كالماء البارد يبرز لأَهْيَمٍ قاطع أمل من الحياة في صحراء متسعة الأطراف شديدة الحر، وكان الحادثُ أقوى درس تعلَّمتُه في الحياة.

# من تحتِ الأنقاض

فتحتْ عينيها لاستقبال أشِعَّة الضوء، فلم تجد إلا ضيف الظلام يغزو بصرها، فغرقتْ في يمِّ سؤالها: هل مُنِعَتِ الأشعةُ من ولوج عدسة العين أم هي أصلًا منعدمة؟

التفتتْ برأسها يمينًا وشمالًا علَّها ترمُق بصيصًا من الضوء هاربًا من مكان آخر يتجه نحوها، لكن دون جدوى.

كانت لا تزال مستلقية على ظهرها في سريرها.. لم تفهم ما يجري، فهل هي في حلم ويُخيَّل إليها أنها مستيقظة؟ أم هي في يقظة وتعيش ما يعيشه الرائي في الأحلام؟

ذرَّاتُ الغبار التي تملأ المكان أرغمتها على السُّعال بشكل حاد، وألهمتها الإقدام على إنارة المصباح من أجل تفحُّص الغرفة التي تجمعها بأختها الصغيرة..

طفقتْ تدفع بيديها من أجل القيام من سريرها، إلا أنَّها صدمت رأسها بسطح كان يعلوها، اضطُرَّت إلى الرجوع إلى وضعيتها الأولى..

تسرَّب الخوفُ من مسامِ جلدها فغزا الجسمَ كلَّه، تلاه إخفاق للفؤاد بأقصى سرعة، فأنشأتِ الأَنفاسُ تصعد وتنزل كما تفعل كرة الطائرة بين أيدي لاعبيها، وسال العَرَقُ من جبينها كما تسيل الأمواه في الشّعاب بين الجبال.

مَدَّت يدها إلى أعلى كي تتقصَّى السطح الذي يعلوها..

إنه مُستوٍ يُشبِهُ الحائط.. ما هذا؟ لم أفهم شيئًا!! تقول سلوى في نفسها.

أحسَّت بشيء ثقيل يجثم على قدمِها اليمنى.. أرادت تحريكها فإذا بألم فظيع يمنعها.. جرَّبت بقدمها اليسرى فإذا بها مُحَرَّرة.. أخرجتها من أسفل البطانية، ثم رفعتها قليلًا قصد تحسُّس الشيء الجاثم على قدمها الأخرى، فإذا هو جسم صلب ثقيل يشبه الجدار من الطوب.. لم تستوعب أنها يَقْظى وبكامل وعيها.. نادت أختها الصغيرة ليلى، والتي لا يفصل بين سريريْهما إلا خزانة صغيرة، لكنها لم تتجاوب.. كرَّرت النداء مرات ومرات لكن بلا فائدة..

ما زال السؤال يراودها إن كانت مستيقظة أم لا تزال نائمة وتعيش كابوسًا فريدًا.

كلُّ ما عَلِق بذاكرتها أنها أوت إلى فراشها قبل منتصف الليل بساعة، أما أختها ليلى فقد جرَّها التعب والنوم إلى سريرها باكرًا.

وهي محبوسة في مكانها، مُقيَّدة بسريرها، والظلام ما زال مستوليًا على المكان، استحضرت قصة كانت أخبارها قد شاعت وذاعت في مدينتها قبل

أشهر، وأحدثت ضجة بين الناس، قسَّمتهم إلى مُصدِّق حائر، ومُكذِّب ساخر، مفادها أن زوارًا لإحدى المقابر، نبَّه مسامعهم طَرْقٌ قويٌّ ومتتالٍ ينبع من قبرٍ حديثٍ لم يُشيَّد إلا منذ أسبوع، ولَمَّا اقتربوا منه وحقَّقوا الإنصات، سمعوا أنينًا ونشيجًا تحت الركام، فهالهم الأمر واستدعوا السلطات التي أكَّدت هي الأخرى الخبر..

استُخرِجت الجثة التي كانت في حالة جيِّدة، كأنها دُفِنَت في ذلك اليوم، وعُرِضَت على طبيب شرعي ليؤكِّد بعد المعاينة أن الفقيدةَ فاقدةٌ لعلامات الحياة، وأن وفاتها طبيعية، وما قضية الأصوات المسموعة إلا أوهام وتصوُّرات باطلة..

استغرب الناس من الحادث، فاختلفت التفسيرات والتأويلات.. منهم من يقول إنّ الفعل فِعل جِنِّيٍّ يُريد خلق الفتنة، ومنهم من يقول إنّها صدًى لأصوات آتية من بعيد، لكنهم مُجمِعون على سماعها.

أُرجعت الجثة إلى مثواها، واختفى الصوت فاختفى معه هرج الناس.

اِستحضرتْ سلوى هذه القصة، فخافت أن تكون هي مَن تلعب ذلك الدور هذه المرة بعيدًا عن الأوهام والتصوُّرات؛ إذ دُفِنَت حية بعد التوهُّم بوفاتها..

سألت قائلة: هل كنتُ في غيبوبة اعتقدوها مُفارَقةً للحياة؟ ألم يُكلِّفوا أنفسهم عناء التحقُّق والتثبُّت؟ ألم يسمعوا بقصة الإماراتية منيرة عبد الله، التي ظلَّت في غيبوبة مدة سبع وعشرين سنة، نتيجة حادثِ سيرٍ أصابها وهي في طريقها سنة 1991 عائدة من المدرسة التي كان يدرس بها ابنها عُمر ذو الأربع سنوات؟ أصيبت في دماغها فدخلت حالة فقدان الوعي، تُسمَّى الحالة الإنباتية، وهو اضطراب يظهر عندما يظل فقط جزءًا من دماغ المريض في حالة نشاط، فيتوقَّف وعيه بنفسه وبالبيئة المحيطة به.. فلم تستفق إلا سنة 2018 بعد أمل كبير من ابنها ومتابعته المديدة، فكانت أول كلمة تنطق بها هي اسم ابنها عمر.

تسترسل تساؤلاتها فتقول: كذلك لا أذكر أني رأيتُ ما يراه الذين اقتربوا من الموت، من رؤيتهم نفقًا يختلط فيه البياض بالسواد حتى يصل إلى نور ساطع، واجتماعهم بمن سبقوهم من الموتى، وربما يرَون استعراضًا لما عاشوه في حياتهم، فهل كُنتُ استثنائية؟

ما العمل الآن؟ هل أصرخ ملء فمي حتى أُسمِع الزائرين شكواي؟ أم أكتفي بالصمت حتى أموت موتةً لا شك فيها ولا ارتياب؟

بَقِيَتْ على هذا النحو هُنَيهة من الزمن والرعب ينخرها شيئًا فشيئًا.. خطر ببالها أن تُمرِّرَ يدها أسفل الجسم الذي يعلوها مُتحسِّسةً من أجل التعرُّف

عليه.. وجاهدتْ في توسيع مساحة التحسُّس بيدها حتى اعترضها شيء عالق.. تلمَّستهُ بتمعُّن، فخلُصت إلى أنه مصباح مُثبَّتٌ بالسطح، وهو نفس المصباح المعلَّق بسقف الغرفة، والذي تُبادِله النظرات عندما تكون سارحة بخيالها تعالج أفكارها..

فهمت الحقيقة.. فهمتْ أن السطح الصلب الجاثي الذي يريد حَضْنَها، ما هو إلا سقف الغرفة المنهار، وأن السبب لا يكون إلا زلزالًا مُدمِّرًا، جعلها تعلق تحت ركام البيت المُكوَّن مِن طابقَين..

تضاعف الخوف عندها وتآزر مع الظلام الدامس فأصبحا كجُندِيَينِ ثائرَينِ قابعَينِ على الأسير يُعذِّبانه بغِلظة وقسوة، فصارت تطلب الرحمةَ في الموت، وتبحث عن الخَلاص في لقاءِ الرفيق الأعلى.

كرَّرتِ النداء لِليلى، ثم لِوالدها ووالدتها، أما أخوها فكان في سفر إلى العاصمة قصد الدراسة، لكنَّ الصمتَ والهدوء كانا هما الشعار الأوفى الذي يغمر المكان، فلم تعد تسمع إلا عقارب الساعة التي سَلِمت من ذلك الانهيار المباغِت.

أنشأت تناجي خالقها قائلة:

ربِّي إنَّك ترى ما أنا فيه من ضِيق، وتعلم ما ألمَّ بي من ضُرٍّ، فتَوَفّني إن كانتِ الوفاةُ خيرًا لي، أو نجِّني إن كانتِ الحياةُ خيرًا لي.. ربي إنك تعلم أنِّي تائهة بين الركام، وعاجزة عن القِيام، فاجعل لي مخرجًا أو ارزُقني حُسنَ الختام.

تذكَّرت سلوى عصيانها لوالدتها تلك الليلة لمَّا امتنعت عن غسل أواني العَشاء؛ بحُجَّة أنها تريد الخلود للنوم كي تستيقظ باكرًا للمذاكرة؛ إذ الامتحانات الجامعية على أبوابها.. اشتعلت نيران الندم في داخلها، وسال دمعها على وجنتيها بغزارة، تمنَّت حينها أن تكون والدتها لا تزال حية، وأن يمنحها الله فرصةً أخرى للحياة حتى تَبَرَّها وتُلبِّي ما طلبت منها..

تذكَّرتْ أنها لم تُلقِ التحيةَ على والدها كما كانت تفعل كلما أرادت الذهاب إلى النوم، فاعتذرت له بقلبها واستغفرت لربها من ذنبها..

استحضرت أنها لم تزُر الأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات وبعض الأقارب منذ مُدَّة طويلة.

ثم تذكَّرت تلكُّؤها في ردِّ الكتب التي استعارتها من صديقتها، فحزنت على ذلك.

فهمتْ أخيرًا أن الدنيا خدَّاعة، لا تلبث تعرض مفاتنها لعاشقها حتى توقِعهُ في شَرَكها، ثم ترمي به في هُوّةٍ سحيقة لا يستطيع النجاة بعدها، وعلِمتْ أن الحياة قد تُسلَب من جسدِ البطل السليم كما تُسلَب الريشةُ من صدر النسرِ

الجسيم، كما استوعبتْ أن أعدى الأعداء للمرء هو شبح التسويف، ذلك الصانع لأجود الفرامل، فرامل تمنع الشروع والإقدام على الطاعات وأداء الواجبات في الحياة.

وهي بين الغَوص في فهم فلسفة الحياة، ومصارعة الصمت والخوف، فاجأها صوت مُنبِّه هاتفها المضبوط على ساعة الفجر، وكان لا يزال بمكانه فوق الخزانة الكائنة بين سريرها وسرير أختها ليلى..

صاحَب صوتُ المنبه انبعاث النور من شاشته، فأضاء المكان بنور خفيف ظهر معه الركام الممزوج بين الجدران والسقف وفتات الأثاث الآتي من كل مكان.. استدارت تلقاء سرير أختها فإذا به مغمورٌ بالأنقاض، ولم يبق إلا كُوَّة تجلَّى منها وجه ليلى.. لقد كان يشع نورًا وبراءة، ولا يوحي البتة أن صاحبته قد فارقت الحياة..

ظلَّت تناديها وتناديها حتى أخرسها العياء، وتأكَّدت أنها تنادي جسدًا بلا روح.. لقد قَضتِ المسكينة وهي لم تكتفِ بعدُ بمسرات الحياة.

أرادت جلْبَ الهاتف لإيقاف رنينه وإزالة وضعية الطائرة الذي هو مُبرمَج عليها، لكنها لا تقوى على الحركة..

بعد هنيهة توقَّف الهاتف عن الرنين، وعاد الظلام يبسط رداءه من جديد، لكن هذه المرة، استأنستْ به، وشكرتهُ لأنه حجب عنها ما لم تقوَ على رؤيته.

تفاقم الألم في قدمها واستشرى حتى خرجت الصيحات تترى تشهد على عظمة الضّر الذي ألمَّ بها، لكنها لم تجد في طريقها إلا أجسامًا صلبة لا تبرح مكانها، وأتربة متناثرة لا تفقه إلا تهييجَ السُّعال وإثارة العُطاس، فتكتم أنفاسها وتبلع صيحاتها، وترجع لمناجاة ربها.

وقبل أن يعطس الصبح، تجلَّى الأمر الإلهي الكائن بين الكاف والنون، فجعل الأرض تهتز هِزَّة ارتدادية، حرَّكتْ ما كان ساكنًا، وأسقطتْ ما كان يُوشِك على السقوط، ونقلت الأشياء من مكان إلى آخر، وحرَّرتْ قدم سلوى من الركام الجاثم على قدمها، لكنها لم تُفلِح في زحزحة أو إخماد الألم الذي بها، ثم أظهرتْ فجوة في الأعلى فَتحتْ لنجْمات السماء باب التطلُّع والمراقبة، فكان ذلك بشارة خير على سلوى أبعد عنها الوحشة، وقلَّل فيها الضِّيق والغُمَّة.

بعد دقائق، سمعت بمقربة منها أنينًا تختلف حدته بين حين وآخر.. أنصتت إليه تبتغي التعرُّف إلى صاحبه، فلما تبيَّنَ لها صاحت عاليًا:

- أبي، أنت هنا؟

ردَّ بعد أن تجلَّد واستجمع قِواه:

- مَن؟ سلوى؟

تفوَّهت والفرح يغمر كيانها كله، كأنها نجت من الكارثة:

- نعم أنا، أخبرني كيف حالك وحال أمي؟

- أنا بخير يا بُنيَّتي، أشكو بعض الكدمات الخفيفة في جانبي الأيسر، وأنتِ، هل أصابك مكروه؟

- أُحسّ بألم في قدمي اليمنى، قد يكون كسرًا.

- لا قدَّر الله، وأختك ليلى؟

سكتت ولم تقوَ على الرد، لكنه أعاد عليها السؤال مرة أخرى، فأجابت والأسف يلبس صوتها:

- لستُ أدري يا أبي، فلقد ناديتها ولم تُجِبْ.. لكنكَ لم تخبرني عن أمي!

- لا تهتمي يا ابْنتي، ننتظر بزوغ النهار ونتأكَّد..

- أخبرني كيف جرى هذا يا أبي، فلم أشعر إلا وأنا مُقيَّدة تحت الركام.

- لقد حدث ذلك في رمشةِ عين بعد أن آوينا إلى الفراش.. ظننتُ في أول الأمر أن شخصًا قام بتحريك السرير من تحتي، حتى شعرت بانهيار الجدران.. حاولتُ الفرار، لكن قوة الاهتزاز أسقطتني أرضًا، وأصابني بعض الركام في أطرافي، ثم أُغمِيَ عليَّ، إلى أن استفقتُ وكل أطرافي تؤلمني.. بقيتُ أتوجَّع في مكاني، حتى شعرتُ بالهزة الثانية التي أزاحتني عدة أمتار فقرَّبتني إليك..

- هل كان مِنَّا يا أبي ذنب عظيم استوجب اهتزاز الأرض تحت أقدامنا؟

- لا يحق لنا يا بُنيَّتي أن نجزم بمراد الله بأفعاله في مخلوقاته، وهل أذنبت أختك ليلى التي لم تبلُغ الحُلم بعد؟ إنها حكمته التي تقف عقولنا عاجزة عن إدراكها، فقد تكون ابتلاءً واختبارًا لما نملكه من صبر ورضا، أو إظهارًا لحقيقة إيماننا وتصديقنا ومدى تشبُّثنا بخالقنا، فيعظُم الأجر ويتضخَّم، وتُكَفَّر الخطايا وتُغتفَر الذنوب، أو هو تخويف للعباد من قوته التي تخضع لها كل القِوى مهما عَلتْ وارتفعتْ، فيرجعون ويتوبون، أو لأنه يريد سبحانه اصطفاء من يظْفر بتاج الشهادة، فيدخل الجنة بسلام، أو هو تذكير بنعمة استقرار الأرض التي نحيا بخيراتها ونهدأ بثباتها، أو هو تبيين لحقيقة الدنيا التي نتهافت على جمع زينتها، فإذا بالذي جمعناه في أعوام يذهب في لحظة واحدة.. فالحمد لله على كل حال.

- والحمد لله أنك لا تزال حيًّا يا أبي، لكن أنَّى لنا السبيل إلى الخروج من هنا؟ فقد تأتينا هزة أخرى لا نسلم بعدها.

- نحن في مشيئة الله يا بُنيَّتي، لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا.

همَّتْ بالنزول من سريرها المائل لتقترب من والدها، فأسندتْ يديها لترفع جسمها العليل، فإذا بكفِّها اليسرى تلامس هاتفها الذي رمت به الرجفة إلى سريرها؛ كأن أبواب السماء انفتحت لتضرُّعاتها وابتهالاتها.

انقضَّت عليه وقلبها يخفق خوفًا أن يتفلَّت منها، فأزالت وضع الطائرة وأنارت المصباح المدمج فيه لتجد كل شيء مبعثرًا حولها، وأنها محبوسة وسط جبال من الحطام والأنقاض، ثم وجَّهت النور تجاه والدها، فإذا بأكوام الردم تقف حاجزًا بينهما.. حاول المسكين تخطِّيها ليتفقَّدها وأختها، لكنَّ قضبانًا من الحديد العالقة في الأسمنت حالت دون ذلك.

تفقَّد المكان من كل جانب فإذا به يكتشف فجوة صغيرة يستطيع بعد توسيعها أن يعبر منها.

بعد عناء شديد، كان يضم سلوى بين ذراعيه ودموع الأسى والفرح تفيض على وجنتيه، ثم تناول الهاتف منها وتسلَّل من بين الأنقاض باحثًا عن ليلى.

ها هو يجدها تنام نومة لا استفاقة بعدها، وهي تبتسم ابتسامةَ من رأى شيئًا يسرُّه.. نفَض عنها الغبار الذي لم يزدها إلا نورًا وإشراقًا، ثم ضمَّها إلى صدره وهو يقول:

لقد اختارك المولى أن تلحقي بأقرانك في الجنة، وكتب لك ألا تتلطَّخي بأقذار الدنيا ومعاصيها، وأن تذهبي طاهرة كما جِئْتِ طاهرة، فالحقي بأمك وخذي بيدها حيث تذهبين، ثم تسلَّل بها إلى حيث يرقد جثمان والدتها، فمدَّدها بجنبها..

لكن سلوى بعد أن سمعت ما تلفَّظ به والدها، ظلَّت جامدة من هول الصدمة، ثم صرخت بأقوى ما تقدر، وصمتت هُنيهة من الزمن ثم ابتسمت ابتسامة بهجةٍ ومسرة لَمَّا تذكرت أن من مات تحت الردم مات شهيدًا، كما ذكر ذلك النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، فدعت لوالدتها واستغفرت ربها.

بعد مهلة قصيرة، زحزحت الشمسُ النجْمات المُطِلَّة من الفجوة، فأَدخلتْ أشعتَها وسلَّطتها على الركام مُتحرِّية، فأظهرتِ الجُثتين المُمدَّدَتينِ على مضجعٍ ينعكسُ منه شعاعُ الحنان وبريقُ البراءة.

هنالك رنَّ هاتفُها ليكون أخوها على الخط، فتصف له المشهد وتسرد له الأخبار.

اجتمع الناجون من الناس، وهبُّوا لتقديم المساعدة بقدر ما يستطيعون، وبعد ساعات من النبش والحفر ونقل الركام، كانت سلوى ووالدها بين أيدي المُسعِفين في الطريق إلى المشفى، أما ليلى ووالدتها، فلقد كانتا تحت رعاية الساهرين على دفن أجثاثِ القتلى.

# الحلـمُ بالثّـراء

هو دائم الشكوى من قلة راتبه وكثرة مصاريفه، ومُفرِط التذمُّر من غلاء المعيشة التي برزت بسيوفها البتَّارة، تُزهِق أرواح الصعاليك دون رحمة، وتَكتُم أنفاس المحتاجين دون شفقة، حتى أصبح يُعرَف بين أصدقائه ومعارفه بالمُفلِس الفقير..

عبد الناصر، مُوظَّف بإحدى شركات الاتصالات الهاتفية.. زوج لربة بيت وأب لثلاثة أبناء: كاظم، عمره سبع عشرة سنة، وآية عمرها خمس عشرة سنة، أما هاجر فتصغر أختها بسنتين.

مصاريف الأبناء أثقلت كاهله، فأصبح لا يقوى على تغطيتها كلها، بل غدا آخر درهم من أجرته لا يبلغ منتصف الشهر، فيتم الباقي من الأيام على الاقتراض من هنا وهناك. من أجل ذلك لا تراه إلا مهمومًا منشغل البال، باحثًا عن مخرج للوضع الذي يعيشه..

تغوُّله في الشبكة العنكبوتية عرَّفه بمجالات عدة لكسب مزيد من المال وبلوغ الراحة المالية، لكنه حائر أيها يختار، وبأيها يبدأ.. أخيرًا انجذب إلى أحد الفيديوهات على اليوتيوب، حيث كان المُتحدِّث رجلًا أنيقًا بشوش الوجه،

يظهر عليه الوقار والمهابة، كان يتحدث عن مشروعه الربحي عبر الإنترنت، ويشجع هذا النوع الجديد من الأعمال، فيقول:

مشروعي هذا عبارة عن شركة لتقديم خدمة الدعاية والإعلان، وأنتم تعلمون ما أصبح للدعاية من أهمية في حياتنا اليومية، وتعلمون كم من الأموال التي تُصرَف عليه، خاصة من الشركات الكبرى.. وقبل أن أنشئ مشروعي هذا كنت أعمل موظفًا في شركة أجنبية تقوم بنفس العمل، فَبَهرني المشروع، وأدهشتني كثرة الأرباح التي كانت تجنيها هاته الشركة، فقررت بعد ثلاث سنوات من العمل تحت سيادتها، أن أقدم استقالتي، وأتفرَّغ لإنجاز مثل هذا المشروع مع أبناء بلدي، فأنا لا أفكِّر في الربح الشخصي بقدر ما أُفكِّر لشباب وطني والنهوض باقتصاد الوطن..

خلاصة المشروع أنه يجب على المستثمر معنا التسجيل بموقع الشركة، ثم شراء عدد من الباقات، التي تُعَد أَسْهُمَ في الشركة، بعدها يلزمه الضغط كل يوم على أربعين إعلانًا، يجدهم في صفحته أوتوماتيكيًّا، بعد ذلك سيحصل في كل عشر باقات اشتراهم منا دولارين ونصف، فالباقة الواحدة ثمنها عشر دولارات، وكلما كان عدد الباقات المشتراة أكبر، كان ربحك معنا عاليًا، كما يمكنك تفعيل خاصية إعادة الاستثمار؛ بحيث تحصل في اليوم الموالي على اثنين

ونصف بِالمائة من الأرباح على الرأسمال الجديد، وهكذا.. كما يمكنك ربح نسبة واحد بالمائة من رأسمال صديقك في حالة كنتَ السبب في جلبه بوصفه مستثمرًا جديدًا معنا، دون أن ينقص شيء من رأسماله الذي استثمره.. وللمستثمر الحق أن يسحب أرباحه وحتى رأسماله بضغطة زر متى أراد ذلك..

أخيرًا أحب أن أزِفَّ إلى شركائنا أننا نسعى إلى تطوير الشركة، بحيث سنضيف بعض الخدمات الجديدة، وسنُدرِج أنواعًا أخرى من الباقات، مع نِسَب مختلفة من الأرباح، ولنا تفاصيل هذه الإضافات في مناسبة قادمة بحول الله تعالى..

لكنَّ نجاحنا مرهون بثقتكم بنا وصبركم علينا وتعاونكم معنا.. وباب شركتنا مفتوح لمن أراد مزيدًا من الاستفسارات، وتجدون العنوان أسفل هذا الفيديو..

نلقاكم قريبًا إن شاء الله، والسلام عليكم.

لم يمكث عبد الناصر كثيرًا بعد إتمامه هذا الفيديو، حتى كان أمام حاسوبه يلج موقع الشركة من أجل التسجيل بها..

أدخل كل معلوماته في استمارة التسجيل، وأرفقها بصورته الشخصية، وصورة بطاقته الوطنية، وكذا رقم حسابه البنكي من أجل نقل أرباحه إليه، ولم يتبقَّ له إلا ابتياع عدد الباقات المقدور عليها لبدء الاستثمار..

تصفَّح مواقع التواصل الاجتماعي باحثًا عن منشورات تتناول مشروع الشركة وكيفية البدء في المشروع، ولمَّا اطّلع على مئات المنشورات التي تُثنِي على الشركة، وتؤكِّد على مصداقيتها، بل وتُثبِت بالصور عملية سحب الأرباح والتوصُّل بها إلى الحساب البنكي، ازداد حماسه على بدء الاستثمار واستعجل لحظة البدء.

لم ينم عبد الناصر ليلته تلك، وكيف له بالنوم وهو يُفكِّر من أين يأتي بملغ الاستثمار.. هو لا يريد أن يبدأ بأي مبلغ، فالاستثمار بمبلغ صغير يستهلك كثيرًا من الوقت للحصول على أرباح محترمة، وهو في نفس الوقت لا يُحبِّذ فكرة الاقتراض من أيِّ أحدٍ كان..

بعد تفكير عميق قرر بيع سيارته والاستثمار بجُلِّ ثمنها..

قام من فراشه منتصف الليل بعد أن استولت عليه فكرة البيع، فأنشأ في إحدى صفحات البيع والشراء إعلانًا بِبَيع سيارته، أرفقه ببعض الصور التي

كانت عنده، ثم حدَّد ثمن البيع بِأربعة آلاف دولار ونصف.. بعدها رجع إلى فراشه وهو غارق في أحلامه.

في مساء يوم غد، وكان يوم عطلة، التقى عبد الناصر صديقه مصطفى، وكان صديقًا حميمًا، جمعتهما الحياة منذ الصِّغَر.. فلا أسرار بينهما تُخَبّأ، ولا أحداث بينهما تُكتَم..

عرض الفكرة على مصطفى بحماس، وتفرجا معًا على فيديو صاحب الشركة وبعض الفيديوهات التي تشرح بالتفصيل طريقة الاستثمار والحصول على الأرباح..

تفجَّر حماس مصطفى كذلك وغمرته الفكرة، لكن ثمَّة أسئلة تدور في خَلَده كشفها على التوِّ لصديقه عبد الناصر:

- هل بحثتَ عن موقف الشرع من مثل هاته المشاريع؟

- لقد سمعتُ من رئيس الشركة نفسه يؤكِّد أنه استفسر من أهل العلم عن مشروعه قبل البدء فيه، وأجازوه له، وهو ينوي استصدار فتوًى من المجلس العلمي حتى يُطَمئِن الجميع.

- وهل الشركة موثوقة؟

- لقد وجدتُ البارحة مئات التعليقات على فيديو الرئيس تُثني على الشركة وتعرض إثباتاتٍ لسحب الأرباح.

- كيف لها مئات من المشتركين وهي لا تزال جديدة؟

- ماذا تقول يا مُغفَّل، بل قل الآلاف، فعندما سجّلتُ البارحة بالموقع، كان رقمي يتجاوز الألف العاشر.. فمثل هذه الأخبار تزحف بين الناس كما تزحف النار في الهشيم.

- شيء غريب أن يكون للشركة أرباح كثيرة تُوزِّعها يوميًّا على كل هؤلاء المساهمين!!

- الشركة تكسب أموالًا طائلة من الإعلانات، ألا ترى ما للإعلانات من أهمية بالغة للشركات؟ ألا تراها تصرف الملايين من أجل إعلان لمنتوجها، يقوم به لاعب كرة محترف أو مُمثِّل مشهور لثوانٍ معدودة؟ الزمن تغيَّر يا صديقي، والأموال أصبحت منثورة في كل مكان، ما على المرء إلا التنقيب عنها.

- وكيف لنا بشراء الباقات؟

- الأمر سهل جدًّا، فقط باستعمال بطاقة الائتمان عندك..

- ما المبلغ الذي ستبدأ به يا عبد الناصر؟

- أنوي البدء بثلاثة آلاف دولار، لكن بعد أن أبيع سيارتي.

- يبدو أن المبلغ كبير، وأنا لا أُشجِّعك على بيع سيارتك، فكيف ستقطع تلك الكيلومترات ذاهبًا إلى مَقرِّ عملك؟

- لا بد من المغامرة يا صديقي، فكيف لك أن تفارق الفقر بالخوف والجمود، فالفرق بين الأثرياء والفقراء أن الأوائل شجعان ومِقدامون، أما الآخرون فهم خوَّافون متقاعسون.. سأقتطع من مبلغ البيع ما يُمَكِّنني من شراء دراجة نارية أركب عليها، وسيكون هذا مؤقتًا، إلى أن أسحب من أرباحي ما أستطيع به شراء سيارة أخرى.

- أما أنا فسأبدأ بخمسمائة دولار، هذا ما أقدر عليه.

- ليس مُهِمًّا بكم ستبدأ الاستثمار، فالمهم هو البدء ودخول معركة الحصول على المال.

وهكذا، تجاذبا أطراف الحديث ساعاتٍ طويلة، مُعلِّقين على كل كلمة قالها رئيس الشركة، وباحثين عن أجوبة لأسئلة تخطر على بالهما من حين لآخر، حتى تفارقا وهما عازمان على اقتحام الميدان بكل جرأة وقوة.

بعد ثلاثة أيام، بِيعَت سيارة عبد الناصر بأربعة آلاف دولار.. ثلاثة آلاف منها لم تمكث في جيبه حتى ربع ساعة، فقد اشترى بها ثلاثمائة باقة، وشرع في استثمار المبلغ بالضغط على روابط الإعلانات، فحصل في اليوم الأول على خمسة وسبعين دولارًا، ثم في اليوم الثاني على ما يقرب من سبعة وسبعين دولارًا، لأنه أعاد استثمار المبلغ الأول مع الربح، ثم بعد ذلك أصبح يزداد ربحه لمَّا شرع صديقه مصطفى في الاستثمار..

تحسَّنت نفسية عبد الناصر وأصبح لا يُرَى إلا ضاحكًا بشوشًا، نشيطًا كثير الحركة.. تأكَّد حينها أن المال قوة، وأنه يُحطِّم الحواجز على الرَّغم من تماسكها، ويَثني الحديد على الرَّغم من صلابته.

كان حب الخير الذي يغمر قلبه أكبر دافع لأن يُعَرِّف مشروعه لبعض أصدقائه وأقاربه، فيشرح لهم طريقة التسجيل والانتساب إلى الشركة، ثم كيفية البدء والشروع في الاستثمار بقدر المستطاع من المال..

لم يمر إلا شهر حتى كانت أرباحه تتضاعف وأرقام المبالغ تكبر على شاشة حسابه، فأبى أن يسحبها حتى تصل إلى المبلغ الذي يستطيع به أن يبتعد عن الفقر ابتعاد الأرض عنِ السماء..

كثُرت لقاءاته بكل منخرط بالشركة، سواء من أقربائه أو من أصدقائه، أو حتى من أعضاء المجموعات المُخصَّصة للتشاور والتعاون في مواقع التواصل الاجتماعي أو على الواتساب، ولم يكن أحلى حديث عنده إلا الحديث عن الشركة والاستثمار فيها، فيستغرق الساعات والدقائق شارحًا ومستفسِرًا ومُعلِّقًا..

كان الوقت الذي اختاره عبد الناصر لفتح موقع الشركة والضغط على إعلاناتها هو العاشرة ليلًا، فتستغرق منه العملية برمتها خمس دقائق، يؤدِّيها ثم يطفئ حاسوبه نشيطًا ويأوي إلى فراشه حالِمًا بغد أفضل..

وجاءت الليلة التي لا تشبه أخواتها، فانطفأت الشمعة بغزو الريح الوارد عبر النافذة المفتوحة على مِصراعَيها، فاكتسح الظلام وسكنت الحركة، وهجعت المخلوقات وتقوقعت على ذواتها..

نعم، لقد تعطَّل الموقع، وأبى الإقلاع..

ظنَّ عبد الناصر أن الموقع تحت الصيانة، وسيعود بعد ذلك كما هو معتاد عند مواقع الشبكة، فنام ليلته هادئًا، على أمل أن يفتحه في الصباح الباكر.

حل الصباح، لكنه لم ينفتح!!

هل الأمر عام أم خاص بي؟ قالها عبد الناصر في نفسه مرتعشًا.

اتصل مستفسرًا بأصدقائه ومعارفه وأعضاء المجموعات، فأكَّدوا له تلَقي نفس المشكلة وأنهم يشاطرونه الحَيرة والدهشة.

بعد ساعات من التوقُّف، خرج صاحب الشركة في فيديو يُطمئِن جميع المنتسبين، ويخبرهم بأن الموقع يعاني بعض المشكلات، والتقنيون عاكفون على إصلاحها، وسيرجع للعمل في أقرب أجل ممكن.

مرَّ اليوم الأول ثم الثاني ثم الثالث، والمشكلة ما زالت قائمة!!

بدأت الشكوك تتسرَّب إلى نفس عبد الناصر، وبدأت الابتسامة تضمر شيئًا فشيئًا، والأرق يحتدُّ ليلة بعد ليلة، والذهن يشرد من حين لآخر، تائهًا في تخيُّل سيناريوهات لم يشاهدها إلا في الأفلام.. لكنه متلهِّف على سماع الحقيقة، تلك التي سواء طالت المدة أم قصُرَت ستحج إليه من هنا أو هناك.

بعد أسبوع كان صاحب الشركة ينشر الخبر التالي على صفحته في الفيسبوك، قال فيه:

يؤسفنا أن نُخبِرَ جميع منخرطينا ومستثمرينا الأوفياء أن الموقع تعرَّض للاختراق مِن طرف القراصنة، وأنهم اختلسوا جميع أموالنا المودعة بالبنك، لكنَّ القائمين على موقع الشركة يحاولون تتبُّع آثار هؤلاء الناهبين، وسنفيدكم

بأي جديد متى توفَّرنا عليه، فنوصيكم بمزيد من الصبر، ومواصلة دعمنا ومساندتنا، ونشكركم على حُسن ثِقَتِكم بنا.

عندما نُشِر الخبر على الصفحة، كان المئات من المنخرطين والمستثمرين يقتحمون مقرَّ الشركة، التي كانت خاوية على عروشها إلا من حُرَّاس الأمن وبعض الموظفين، الذين لم يصل إلى علمهم حتى طبيعة المشكلة القائمة..

وبعد التقصِّي والبحث، تبيَّن أن صاحب الشركة وبعض مساعديه، كانوا قد فرَّوا خارج الوطن قبل أيام، تاركين وراءهم مشاريع واهية ووعودًا كاذبة، كما تبيَّن أن نشاط الشركة لم يكن إلا تسويقًا هرميًّا فحسْب، وهو أخذ الأموال من المشتركين وتدويرها بينهم، ومحاولة إيهامهم أن لهم نشاطًا تجاريًّا أو خَدَماتيًّا يتَّصف بالبراءة والطهارة، فيقوم المشتركون الجُدد بتأدية الأموال إلى المشتركين الذين سبقوهم جهلًا منهم، وهكذا حتى يكثر عدد المشتركين المغترِّين بكثرة الأرباح، فيجمع المؤسسون الأموال ويختفون عن الأنظار.

تبخَّرت أحلام عبد الناصر، وتلاشت تخطيطاته وآماله، وتبدَّدت أمواله التي كافح على لَمِّها أعوامًا عديدة، فأصبح يتمنَّى لو تعود به الأيام إلى الوراء، فيَعدِل عن رأيه ويُغيِّر مسلكه، وصار كذاك الطائر المحبوس الذي كان كثيرًا ما يترقَّب الفرصة للفرار من القفص، ولَمَّا تفلَّت من الباب الذي نسيه صاحبه

مفتوحًا وسقط بين خشاش الأرض والحيَّات، اكتشف أنه مقصوص الجناحين، فندم على ما فعل، وتحسَّر على التهوُّر الذي تملَّكه.

كثُرَت الاتصالات بعبد الناصر من الأقارب والأصدقاء مستفسرين عن الذي وقع، ومستوضحين عن الواجب فعله تجاه صاحب الشركة، فعظُم غمُّ عبد الناصر، وضاق صدره همًّا وكمدًا؛ إذْ رأى نفسه المسؤول عن توريطهم في الاستثمار بهذه الشركة.

اجتمع الضحايا من كل حدَب وصَوْب، فأعلنوا سخطهم وتذمُّرهم، ثم عزموا على متابعة الشركة، فكلَّفوا محاميًا للترافع عنهم، وها هم يحسبون الأيام والشهور آملين استرجاع ما نُهِب من أموالهم، وراجين التعويض عمَّا سُرِق من أعمارهم.

# بين القساوة والخيانة

عُرِفْتُ بالخروج متجوِّلًا في المناطق المكشوفة للبلاد، صُحبةَ أصدقائي الثلاثة في كل مرة ضِقتُ فيها برتابة العمل، أو قررتُ تخصيص عطلةٍ للراحة والاستجمام..

هذه المرة، هناك وسط غابة الصفصاف الباكي، في فصل الربيع المُبتسِم بأزهاره، وتحت الشمس المتألِّقة بسيوفها الذهبية، وعلى ضفة النهر المترقرقةِ مياهُه، رَكنتُ منزلي المتنقِّل بأربع عجلات، تلك السيارة المُخصَّصة للرحلات، ثم شرعت صُحبةَ أصحابي الثلاثة في نصب خيمة إضافية بجانب السيارة، على أمل قضاء أيامٍ تُنسينا تعب العمل ورتابة الحياة.

كُنَّا قد سمعنا كثيرًا عن هذه المنطقة المعروفة بكثافة أشجارها ونضارة أزهارها وعذوبة مياهها، والمحيطة بقرية ضمَّت ديارًا صُنِعَ أغلبها بالحجارة والطين، مُتفرِّقة هنا وهناك كأنها حبات لؤلؤ منثور على فستان أخضر، يقطنها أناس عُرِفوا بالكرم واللطافة وحسن الأخلاق.

كان ما زال الأصحاب ينصبون الخيمة لَمَّا رُحْتُ أتفقَّد المكان وراء الأشجار والتلال، فإذا بي ألمح دارًا من حجارة قد حطَّم الجَوْدُ بعضًا من

أجزائها، وسلبت الشمسُ شيئًا من ألوانها، فنال منها الدهر مبتغاه، وتركها تشكو حالها وتنعي مآلها.

راودني الفضول أن أكتشف أغوار هذه الدار، وأنا الذي أهوى حدَّ الجنون زيارة المآثر القديمة، والبنايات العريقة، فتقدمتُ بخطًى ثقيلة حتى لم يبق بيني وبينها إلا عِدَّة أمتار، فتراءت لي شجرتان عريقتان عن يمين وشمال باب المدخل، كانت الأولى لثمر التين، والثانية لثمر العنب، يظهر عليهما الاستعداد لإعطاء المزيد من الثمرات، وكان على مقربة منها بئرٌ رُفِع البنيان المحيط بها قيد متر، مُغطَّاة بألواح خشبية، يظهر أنها مهجورة مدة طويلة، أما سطح الأرض فكان ممتلئًا بالأعشاب التي تطاولت وزادت على حدها، فغمرت كل بقعة يملؤها التراب حتى تسرَّبت إلى عتبة الدار.

وقفتُ بين الشجرتين أمام الباب أنظر إليه بتمعُّن، فإذا به بابًا خشبيًّا صمَّم تجاعيده فِكرٌ ثاقبٌ، ونسجتْ عظامه يدٌ حاذِقة، كان لا يزال وَفِيًّا للشهامة والمروءة، صامدًا لعوامل التعرية، لم تُنهَب منه إلا جزيئات من بعض جوانبه، لكنه كان مفتوحًا مُفوَّجًا قليلًا.

من الخارج ألقيتُ التحية بصوت عالٍ، لكن لا أحد يرد، أعدتُ للمرة الثانية دون جدوى، ثم ناديت إن كان أحد بالداخل، فلم أظفر بأية إجابة.

تقدمتُ ببطء، ثم دفعتُ الباب بمهل، وألقيت التحية من جديد.. لا تجاوب.. تأكدت أن الدار فارغة ولا يوجد بها شخص سواي.

تقدَّمتُ إلى الداخل فإذا بي وسط حوش كبير، تتوسَّطه شجرة عنب أخرى، قد ارتفعت حتى تدلَّت بأغصانها على سقف الغُرف المقابلة لها كأنَّها تُحادِثها وتُبادِلها الشكوى..

دخلتُ الغرفة الأولى من بابها الضيِّق القصير، فإذا سقفها يرتكز على خشب الصفصاف، بين الواحدة والأخرى صفوف من القصب، أما جدارها فكان مطليًّا بطبقة ملساء من الطين، مصبوغًا باللون الأبيض المتهالك، به نافذتان صغيرتان مربعتان، تطلان على فناء الدار، أما أرضيته فكانت من الأسمنت الناعم، وكان يحتفظ بقليل من الأثاث المحتشم الرّثّ، وأغراض بالية غير ذات قيمة، ثم دخلت الغرف الأخرى حتى استوقفتني غرفة مظلمة تضم سريرًا مهترئًا، قد كساه الغبار عدة طبقات.. أنرتُ مصباح الهاتف، وتفقَّدتُ الغُرفة شِبرًا شِبرًا، حتى لمحتُ خزانة مركونة بزاوية بعيدة، تفقَّدتُها فإذا بها تضمُّ بعض الأمتعة النِّسَوِية، أفهمتني أن صاحبتها كانت تتردَّد بين القرية والمدينة، ثم وجَّهتُ مصباحي تُجاه الحائط المقابِل للسرير، فإذا به ممتلئًا عن آخره كتابة، يكاد لا يوجد فراغ بين السطر والآخر، كان الحائط مصبوغًا بالأبيض، أما الكتابة فكانت بصباغة سوداء.. تقدمتُ أكثر وصرتُ أقرأ:

"يا من تثق بوعود الدنيا، وتأمن تقلبات الدهر.. يا من تشهَق هادئ البال، وتضجَع ضاحكًا غير مُبالٍ.. يا من ولَّيتَ ظهرك للأنام وأنت في اطمئنان، إياك أن يصيبك ما أصابني من طُغيان.. ظننتُ خُلُقَ الخَلْقِ مثل خُلُقي، فوُكِزتُ برُمحٍ هشَّم عُنُقي.. وحسِبتُ منهم الصداقةَ خالصةً، فبان أنها للطَّمَعِ قاصدة.. أفنيتُ عُمُري في جمع الأحباب، ولَّما افتقرتُ سَدُّوا في وجهي الأبواب.. لا المرضُ رحمني، ولا الصديق واساني.. حتى الموتُ أعلن النّزاع، فتركني وحيدة أشكو الأوجاع.. هجرتُ المدينة وصخبها، وعدتُ إلى القرية وهدوئها.. حُضنُ الطبيعة ضمَّني، وأريج الأزهار أنعشني.. فليتني لم أهجر أرض الآباء، فلربما كنتُ سلِمتُ من الداء.. فيا قارئًا لمقالي، اتَّعِظْ مِمَّا جرى لي.. فلقد كتبتُه وحِبالُ الموت تجذبُني، وبدعائك لعل الله يرحمُني..".

أثّرتْ في نفسي هذه الكلمات فتناولت هاتفي والتقطتُ لها صورة.. وأنا كذلك، سمعتُ طرْقَ خُطًى بالخارج، فخرجتُ مهروِلًا أتفقَّد المكان، فإذا بي أجد رجلًا شيخًا يتكئ على عكازه، وبجانبه امرأة عجوز تمسك بيده، أحسبها تكون زوجته، فتجمَّدتُ مكاني والتزمتُ الصَّمت، حتى بادرني الشيخ قائلًا:

- أهلًا، لمحناك من هناك بعيدًا، فأردنا معرفة مَن تكون؟

أجبت بتلعثم:

- أأأ.. لا... نحن سُيَّاح فقط، جئنا لزيارة هذا المكان، وأصابني الفضول لرؤية هذا المسكن القديم، فلديَّ شغفٌ كبيرٌ في زيارة مثل هذه الأمكنة التي تحتفظ بذكريات الأجداد.

ردَّ الشيخ فقال:

- نِعْم الشّغَفُ ذاك.. مرحبًا بكم عندنا، نتمنَّى لكم الاستمتاع بالمكان، فالجوُّ جميلٌ هذا اليوم.

- طبعًا، والأجمل هذه الخضرة المنتشرة حوالَيكم.

- الحمد لله، يرجع الفضل إليه سبحانه.

- أكيد، هل أنتم أصحاب هذه الدار؟

- لا، أصحابها كانوا جيرانًا لنا، فلقد كبرنا معًا ولم يُفرِّق بيننا إلا الموت.

- عذرًا إن تطفّلتُ وسألتكما عن الكلمات المكتوبة بجدار إحدى الغرف، فهل تعرفان لها سببًا ومناسبة؟

تنهَّدت العجوز وانصرفتْ بضعة أمتار إلى الظِّلّ، ثم قعدتْ على غصن شجرة كان مطروحًا على الأرض، وتبعها الشيخ وأشار إليَّ بالجلوس على صخرة بجانبه، ثم باشرتْ تقول:

العمرُ يا ولدي بما فيه من تعاقُب السنوات والأشهر والأيام، وما يحمله من شقاء وسعادة، وبُغض ومحبة، ما هو إلا حلم قضاه النائم فترة نومه، فاستفاق وهو لا يذكر إلا الفتات من حلمه.

تفتُر الأجسام وتضعُف، ثم تفنى الأعمار وتسافر الأرواح، فلا يبقى إلا البنيان من الحجر والتراب شاهدًا على ما حفظه من ذكريات، إلى أن يحين دوره ويأتي أجله هو كذلك، فيتلاشى ويختفي إلى الأبد.

إن المكان الذي نتربَّع فيه الآن، هو لزوجين صديقين عزيزين، جمعتنا في كَنَفه حلاوة ومرارة السِّنين.. عاشا فيه مُنشرحَين سعيدَين، ورُزقا بفتاة شقراء جميلة، اختارا لها اسم صفِيّة، سهِرَا على تربيتها وتعليمها، لكن الموت باغتهما قبل أن تبلغ من العمر عشرين سنة، فانتقلت إلى المدينة وأتمَّت دراستها، فأسَّست شركة لها، لا ندري تَخصُّصها، إلا أنها كانت ناجحة، وحصّلت ثراءً لا مثيل له، ثم تزوَّجت وأنجبت طفلًا، لكنها لم تفرح به كثيرًا، حيث تُوفِّي رفقة والده في حادثة سير، فظلت وحيدة صابرة محتسبة. وعلى الرَّغم من ثرائها، فإنها لم تترفَّع على فقير أو مسكين، أو تقطع زيارة صديق أو صلة رحم، فكانت تزورنا كل شهر، وتُقِيم هنا الولائم والمآدِب.

كان بيتها هناك مقرَّ كلِّ حاجٍّ إلى المدينة يبتغي زيارة طبيب أو إدارة من الإدارات، فتستضيفه وتُكرِمه وتساعده على قضاء حوائجه، كما كان بيتها يعجُّ

بالزائرات من صديقاتها وحَمواتها من النساء، وحتى من قريبات زوجها، فيُطعَمن ويُسقَين ويمزحن ما شئن من الأيام والليالي، ثمَّ يُكرَمن وهُنَّ مغادرات.

ويأتي اليوم الذي كَسفت فيه شمسُه، وانخسف فيه قمرُه، ولم تُعزَف فيه الموسيقى لتتراقص نسائمُه، فانبثق المرض الخبيث من صدر المرأة الجميلة، وغدا يزحف في أحشائها بكل تمرُّد وشكاسة، حتى صيَّرها ساهرةً للّيالي تجادل الألم وتستعطفه الهجران والانصراف، فصرفتْ كلَّ ما تملك في بنوكها أملًا في الشفاء، ذلك الشفاء الذي أمَّله الأطباء لها رغبة في أموالها، ثم انصرفت تبيع أملاكها، فباعت كل أراضي والدها، وهي هاته الهكتارات التي تظهر حولنا.. باعتها بأبخس الأثمان، ثم انقلبت إلى بيتها فباعته كذلك لبعض أقرباء زوجها الذين لم يرحموا ضعفها ولم يرِقّوا لمُصابها، فأخذوه بثمن زهيد، ولمّا نفِدت أموالها وتبدَّدت، رجعت تطلب السكينة في هذه الدار التي كانت آخر ممتلكاتها، أما شركتها فلقد أعلنت الإفلاس لمَّا تكالبت عليها الديون وتسلَّلت إليها أيدي الغاصبين الخوَنة.

أذكر أني زرتها في المدينة مرتين، المرة الأولى بعد زواجها بأشهر؛ حيث كانت تقيم معها حماتها، والدة زوجها، وكانت هذه الأخيرة مُقعدة تعاني العمى، وتشكو مرض السُّكَّري وارتفاع الضغط، فكانت صفِيَّة تقوم برعايتها

أحسن رعاية؛ حتى إنها تفرَّغت للاعتناء بها وكلَّفت زوجها بإدارة الشركة.. كانت المسكينة لا تُغمِض عينيها ليلًا إلا بضع دقائق، متفقِّدة حاجات حماتها، ومُخفِّفة لمعاناتها ومآسيها، ثم تستيقظ صباحًا لتحضير وجبة الفطور الخاص بها، بعدها تغرز فيها شوكة الأنسولين، ثم تُناوِلها الدواء الخاص بارتفاع الضغط، وتناولها فطورها وتصحبها إلى فراشها في غرفتها، ثم تقوم بخدمة شؤون البيت، وتُحضِر الغداء لزوجها، وتستقبل الضيوف الذين كانوا يتقاطرون على البيت لزيارة حماتها. أما حمواتها المتزوجات، فكُنَّ لا يأتين إلا كما يأتي الضيف الزائر، فيجلسن للدردشة مع والدتهن، ثم يقمن مُودِّعات راحلات. وهكذا حافظت على رتابة عنايتها لحماتها حتى توفاها الله وهي راضية عنها.

والمرة الثانية، كانت بعد وفاة زوجها وابنها وقبل هجوم المرض عليها.. كنتُ أظنُّ أنني سأجدها تعاني الانفراد والوحدة، لكن بالعكس، كان البيت يضج بالداخلات الخارجات، مِنهُنَّ الصديقات وأكثرهن من عائلة زوجها المتوفَّى، سواء القريبات أم البعيدات، وهذا هو حال الكريم مع معارفه وأصدقائه.

لكن البيت انطمس نورُه وانقطع خرير مياهه إبان استفحال المرض فيها، وتسلُّط شبح الفقر عليها، فانقطعت الزيارات عنها، حتى إنها كانت تفتقر إلى

مَن يصحبها للذهاب إلى المشفى لإجراء حصة العلاج الكيميائي، فتذهب وحيدة في سيارة أجرة، وتعود منهكة بها كذلك، فتدخل البيت ولا تجد حتى مَن يُقدِّم لها كوب ماء، فتذرفُ عيونُها العَبرات على تحوُّل حالِها، ثم يمتلئ فؤادها حسرة على سذاجتها وبساطة تفكيرها الذي جعلها تثق بكل مَن أطلق في وجهها الابتسامات، وقذف على مسامعها أحلى العبارات، فلقد عاشت الرحلة مِن علم اليقين إلى حق اليقين؛ إذ تأكَّدت بما لا يدع مجالًا للشك أن أغلب مَن كان يأتيها كان لا يرغب إلا في أموالها وهداياها، لا في محبَّتها وشخصها، وعاشت حقًّا ما يعنيه قول الشاعر:

إذا قلَّ مالي فما خِلٌّ يُصاحبنـــــي *** وفي الزيادةِ كلُّ الناس خِـلّاني

كم من عدوٍ لأجلِ المالِ صادقَني *** وكم صديقٍ لفَقدِ المالِ عاداني

هجرت المدينة، ورجعتْ إلى هذه الدار تبحث عن الراحة والهدوء.. عادت تجترُّ ذكريات صغرها وهي في حضن والديها، تلعب وتمرح مع رفيقاتها، وتعدو وتركض وراء حيواناتها.. رجعتْ تُحادِثُ الشجرَ والوَردَ والزَّهرَ، وتناجي النمل والفراش والعصافير، وتُراقِصُ الأرياح والأهوية والأنسام..

دخلتُ عليها في أول يوم حلَّت به هنا، فوجدتها تحمل ريشتها وتخط تلك الكلمات التي سألْتني عنها آنفًا يا بُنَيَّ، ذُهِلْتُ من منظرها الذي أصبحتْ عليه،

فكدتُ أن أُكذِّبَ نفسي أنها صفِيَّة التي أعرفها، لولا ابتسامتها البريئة التي دأبت تُلقيها في وجوه زائريها..

حاولتُ مواساتها والتخفيف من آلامها، لكني وجدتها مَدرسةً في الفهم والرضا والصبر، فردَّتْ قائلة:

نحن البشر يا خالتي رحمة لا نملك شيئًا في هذه الدنيا، فحركاتنا وسكناتنا، وقيامنا وقعودنا، وحتى شهيقنا وزفيرنا لا نملك منهم شيئًا، وهذا الجسد هو لبارئه يفعل فيه ما يشاء، فيبتليه بما شاء، ويعافيه أو يرده إليه متى شاء، أما نحن فلا نملك إلا اتباع أسباب العافية والدعاء بالشفاء، وعلى الرَّغم من قساوة هذا الداء، فإنه يلزمنا التشبُّث بأمل الشفاء حتى لا نستسلمَ ونُهزَمَ، وإن كُتِبَ علينا الرحيل، فنرجو الله أن يجعل معاناتنا كفارة لسيئاتنا، أَوَليس المسلم تُكَفَّر خطاياه حتى بالشوكة يُشاكها؟

ظلَّت المسكينة تكافح وتتصبَّر حتى اشتدَّ بها المرض، واحتدَّ بها الوجَعُ، فلازمت سريرها، وعكفتْ على مناجاة خالقها تسأله الشفاء واللُّطف والرحمة.

كُنَّا نساء القرية نتناوب على زيارتها والمبيت بجانبها نخدمها ردًّا لجميلها، حتى الليلة التي أسلمتْ فيها روحها لبارئها راضية بقضائه وقدره، وتزامنت مع الليلة التي استوفت فيها خمسين سنة، فدُفِنَتْ هنالك بجانب قبر والدَيها.

- كم مرَّ على موتها يا خالتي؟

- لقد مرَّ على موتها خمس سنوات كاملة.
- رحِمها الله رحمة واسعة.

شكرتُ العجوز على القصة الأليمة التي أسمعتني إياها، وهممتُ لإخراج بعض النقود لأكافئهما، لكنهما أقسما أنهما لن يأخذا مني شيئًا، بل عرضا عليَّ مرافقتهما وأصدقائي للغداء عندهما، فأبيتُ وشكرتُ لهما صنيعهما، ثم توجَّهتُ نحو قبر المرأة الفقيدة، فدعوتُ لها كثيرًا وترحَّمتُ عليها، ثم انصرفتُ إلى أصدقائي وأنا مُثقَل بغرائب الحياة وتقلُّباتها، وبمكائد الناس ونِفاقهم.

رجعتُ وبيَ شعورٌ أنَّ قصة صفِيَّة ستتكرَّر معي، فثَمَّة وجوهُ شَبَهٍ بيني وبينها؛ إذ لديَّ شركة وأموال وأصحاب لا ألقى منهم إلا الصفحَ والوِفاق والوسامة، فهل معاملتهم خالصة وبريئة؟ أم هي رياء ومُجاملة وراءها أطماع ومغانم ومكاسب؟

لم أستطع طرد الشكوك التي غمرت جَناني، ولم أقوَ على كتمان الحزن الذي بدا ظاهرًا على وجهي، فبادرني أحدهم قائلًا:

- مالك ذهبتَ بوجه بشوش وعدتَ به عبوسًا كئيبًا؟ أَبالمكانِ ما يُفسِدُ النفوس؟

فسكتتُ قليلًا ثم أجبته:

- بل بالنفوس ما يُفسِدُ العِشرة ويُنغِّص الحياة، وفي مَخزنها ما يجعل النفاق يسمو والخداع يترعرع، فيحار المرء في معرفة الصديق الصادق مِنَ الصديق الماكر ليتمسَّك بالأول ويفِرَّ من الثاني.

فردَّ وهو يحملق في وجهي مندهشًا:

- لم أفهم ما قلتَ، فلربما أصبحتَ فيلسوفًا كذلك!

- الفلسفةُ حكمة، وتجَوُّل ساعة بين هذه الأشجار والأعشاب صيَّرني حكيمًا، وعلَّمني ما لم تُعلِّمني إياه المدرسة لسنوات عديدة.

ضحك الجميع، وظنُّوها مُزحة مني، فأفرغ أحدهم الشاي ونادانا للجلوس، فغُيِّر مجرى الحديث، ثم شربوا ومرحوا وتظاهرتُ أنِّي مشاركهم المرح والفُكاهة حتى لا أفسد عليهم الرحلة، لكني في الحقيقة شارد الذهن أبحث عن الوسيلة الناجعة لتمييز المخلِص الصادِق مِنَ الكذوب المنافق؛ حتى لا أقع فيما وقعتْ فيه أختنا صفِيَّة -رحمها الله تعالى-.

# المُكافأة

كانت نظراتي تسرح خارج القطار لمَّا رنَّ جرس العاشرة صباحًا، وكانت الرحلة ستتَّجه بعيدًا إلى مدينة أخرى لإتمام صفقة تجارية.. وأنا كذلك قُبيل الانطلاق، هزَّتْ مسمعي موجات صوته الخشن مُلقيًا بالتحيّة، ومستفسرًا إن كان الكرسي بجانبي شاغرًا. رددتُ عليه التحية وأشرتُ إليه بالجلوس.

كان يبدو عليه التوتُّر والانفعال.. طريقة كلامه، وطريقة رفعه للحقيبة كي يضعها في دُرْجِ وَضْعِ الحقائب والأمتعة، والكيفية التي جلس بها تُوحِي بأن شيئًا ما أغضبه.

كان شابًّا نحيلًا، مُتوسِّط القامة، أسمر اللون، قصير الشعر، يرتدي قميصًا أسود وسروالًا أزرق من نوع الجينز، وحذاءً رياضيًّا.. خمَّنتُ أنّه في الأربعين مِنَ العمر، ثم تبيَّن لي من الرائحة التي كانت تُرافقه، أنَّه من المُدخِّنين..

انطلق القطار، فبادرني بالحديث عن الطقس والأجواء، وأخبرني أن المدينة التي انطلقنا منها أكثر سخونة من الأخرى التي تبعد عنها بستين كيلومترًا فقط، والتي كان بها قبل ساعات..

سألته عن المدينة التي ينوي الذهاب إليها، فكانت في نفس وجهتي.. استغربت لكثرة أسفاره في وقت متقارب، واستشكل عليَّ نوع عمله.

بعد أخذٍ وردٍّ في الحديث، وبعد القليل من الانسجام بيننا -وكان لا يزال يظهر على ملامحه التوتُّر والانفعال، وفي كلامه السُّخط وعدم الرضا- استأذن منِّي أن أستمع لقصته ثم أحكُم على تصرفه إن كان على حقٍّ أم لا، ولمَّا أبديتُ له موافقتي، أنشأ يقول بعد أن فضَّل أن يسردها من البداية:

أنا بنَّاء كما ترى -وأظهر لي كفَّيه الخَشِنتَينِ وقد تجلَّت فيهما الجروح والثغرات الناتجة عن حوادث البناء- وبسبب الفقر والمسؤولية التي رُمِيَتْ على عاتقي مُبكِّرًا، لم يُكتب لي أن أُنهي دراستي، فجُلْتُ المُدُنَ صغيرًا باحثًا عن عمل، حتى احترفتُ البناء، فتزوَّجتُ قريبة لي وأنجبتُ منها بنتًا وولدينِ. البنت عمرها خمس عشرة سنة، والولد الأكبر في سن العاشرة، أما الآخر فلقد أتم السنة الخامسة.

دأبتُ ومجموعة من أصدقائي على العمل مع مقاول بناء، فكانت أمكنة عملنا تختلف في كل مرة، فنجول المدن والأقاليم ونمكُثُ الأشهر والأيام.. وقبل أربعة أشهر شرعنا في بناء عمارة وسط المدينة المجاورة، ولأنها لا تبعد إلا بساعة من الزمن ذهابًا بسيارة تاكسي، فإنّني كنتُ أُفضِّل البقاء في مقر العمل

ولا أزور أبنائي إلا بعد أسبوعين، فأمكث بينهم يومين ثم أرجع، فأنا أكره التنقُّلَ كثيرًا، ومعروفٌ أن عملَ البناء مُتعِب ولا يترك لصاحبه نصيبًا من الجُهد.

كان عدد العمال يفوق العشرين، إلا أن معظمهم كانوا يرحلون إلى بيوتهم في المساء نظرًا لأنهم من سُكَّان تلك المدينة، أما نحن السبعة فكنا نبيت في غرفة من غُرَف العمارة التي قمنا بتجهيزها وتهيئتها للسكن.

كُنَّا مجموعة في غاية التفاهم، نتناوب على التّسوُّق وتحضير الطعام والطبخ والتنظيف، أما مساءً فكُنَّا نسهر قليلًا بالتفرُّج على التلفاز أو على فيلم من أفلام الإنترنت.

لكن كان بيننا شاب كنا نُلقِّبه بالفقيه؛ لأنه كان يخالفنا طباعًا وسلوكًا.. كان لا ينخرط معنا في الأعمال التي نلهو بها، بل ينفرد في زاوية ويُخرِجُ مصحفه الذي كان يداوم القراءة فيه، ولا يؤذِّن المؤذّن للصلاة إلا وتراه قائمًا مهرولًا إلى المسجد، وكان ينهانا عن التدخين داخل الغرفة التي تجمعنا، فكُنَّا لا نكسر خاطره، فنخرُج لشرفةٍ قريبةٍ ونُدخِّن ما شئنا ثم نرجع إلى الداخل.

لكننا أحيانًا عندما يلحق بنا الملل ونريد أن نخلق جوًّا للمرح، كان يفتح أحد الشباب ذلك الموقع الذي يضم فيديوهات كثيرة.. نسيت اسمه..

التفتَ بوجهه إليَّ، وقال: ذكِّرني باسمه، فأنا أمّيٌّ في مجال المعلوميَّات، ألا ترى هاتفي –وأخرج هاتفًا صغيرًا لا يَدْعَمُ الاتصال بشبكة الإنترنت– إنه من الطّراز القديم.

قلتُ له:

- ربما تقصد اليوتيوب؟

قال:

- نعم هو بالذات.

ثم واصل حديثه:

كان الشاب يتناول هاتفه ويفتح قناة من قنوات الروتين اليومي، ثم يربطه بشاشة التلفاز بطريقة أجهلها، فتظهر عندنا صورة القناة كاملة على التلفاز، ثم ينادي الفقيه المتكئ في فراشه قائلًا:

- تعالَ أيها الفقيه لتستمتع بالنظر إلى الرّدفينِ الكبيرينِ والفخذين الملفوفين والثديين الناهدتين، لكن الفقيه كان يمتعض وينتفض في وجهه، ثم يدعو له بالهداية ويضع سمَّاعته في أذنيه ثم ينقلب على جنبه الآخر إلى الحائط ويهيم في عالمه.

أمّا نحن فكُنَّا نغرق في التنقُّل بين هذه القناة وأخرى، نمكث مُحَمْلِقين في عارضة الجسد التي نراها أكثر جاذبية، ونغضُّ الطرف عن تلك الفاقدة لعناصر الجذب والإثارة، ومع كثرة الاطلاع على تعليقات المتابعين أسفل الفيديو، أصبح الكل أستاذًا في عالم الجمال، فتسمع الأول يقول: أُنظر إلى أنفها كم هو جميل، فهو صغير ولا يوجد به أي انحراف، ويظهر أنّه طبيعيّ غير خاضع لعملية تجميل، ويقول الثاني: أُنظر إلى رموشها كم هي طويلة وكثيفة، أترونها حقيقية؟ ويقول الثالث: كذلك شفتاها، لا أظنُّهما طبيعيّتين، فلا شك أن تقنية حقن الفيلر لم تكن مُوَفَّقة، فكانت النتيجة شفتين ممتلئتين أكثر من اللازم، ويقول الرابع: أَوَتشك في ذلك يا أحمق؟ ألا ترى الثديين والردفين؟ لا يمكن أن يكون امتلاؤهما بذلك الحجم طبيعيًّا، ويقول الخامس: وما يزيد في حسنها أنها لا تمتلك بطنًا بارزة. ثم تسمع كذلك أحدهم يقول: لا خلاف في أنها جميلة، ألا ترى أنها نَضْراءُ، تتمتَّع ببشرة خالية من الشحوب والحبوب والتجاعيد والبُقَع والخشونة، وحتى من شعر زائد، وتمتلك جسمًا رشيقًا متناسقًا؟ ثم ينطق من كُنَّا نُلقِّبه بأبي تاريخ؛ لأنه كان مجازًا بشعبة التاريخ ويُدخِل أخبار التاريخ في كل مواضيعه، فيقول: بل إنها تشبه الملكة نفرتيتي في عينيها، فهما واسعتان سوداوان ورقبتها طويلة شيئًا ما، وهذا ما تميَّزت به

ملكات العهد الفرعوني كما أظهرتهن المنحوتات والرسومات القديمة، وعُرِفن كذلك بخصور نحيلة وسيقان طويلة.

ومثلما كانت تدور هذه التعليقات بيننا فقط، كانت أحيانًا تصل مباشرة إلى إحداهن عندما تكون في بثّ مباشر، فترد بالشكر في حالة أعجبها التعليق، أو ترد بالشتم أو الحظر في الحالة الأخرى.

هكذا كنا نملأ فراغاتنا طردًا للملل، وتقوية على العمل في اليوم الموالي، فنجرُّ الأيام إلى نهاية الأسبوع ونحصل على أجرتنا ثم نتفرَّق لزيارة الأهل والعائلة.

كانت الأجرة تتوزَّع على مبلغ كِراء البيت وفواتير الماء والكهرباء ومصروف الطعام، فتنفد ولا يبقى منها درهم واحد، حتى إنني كنت أدخل في صراع حاد مع الزوجة إذا طلبت مالًا إضافيًّا لشراء أغراض لها، وكانت تُفصِح لي دائمًا برغبتها في البحث عن عمل لتغطية حاجاتها، فأردُّ ساخرًا: وهل تملكين صنعة أو دبلومًا أو شهادة دراسية كي تُمنَحي عملًا؟!

اشتريتُ لها قبل شهرين هاتفًا بالتقسيط حتى تتمكَّن من التواصل مع والدتها وأخواتها عبر شبكة الإنترنت، وحتى تتمكَّن من التغلُّب على الوحشة لمَّا أكون غائبًا عنها، لكنَّ شرًّا فعلتُ، فمنذ ذلك الحين، وأنا ألمح انحرافات في

سلوكها.. لم تعد تعتني بالبيت كما كانت في البداية.. أوانٍ مُلطَّخة مركونة في المطبخ يومين أو ثلاثة، ملابس متسخة قابعة قرب آلة الغسيل، وأخرى جاهزة لكنها مبعثرة في كل مكان وغير مطوية، نومها ليلًا لا يكون إلا بعد منتصف الليل، وقيامها صباحًا لا يتم إلا بعد العاشرة، لا وجبة فطور في وقتها، ولا غداء ولا عَشاء في وقته، كل همِّها التفرُّج على هاتفها، تتنَقَّل من قناة إلى قناة، ولَمَّا أنبِّهها إلى أنها زاغت عن دورها بوصفها ربَّة بيت، تردُّ بأن نظرتي إلى المرأة بدائية وغير مسايرة للعصر، وأن ذلك تجنٍّ على حريتها وحقوقها.

غالبًا ما كنت أفرُّ إلى العمل غاضبًا، مُفضِّلًا العيش مع العُزَّاب في طرَب ومسرَّة على البقاء معها في كَرْب وكآبة.. كنت أشعر بالتحرُّر مع الأصحاب كأني فتًى في العشرين من العُمُر، فأنسى نفسي حتى أجدني غارقًا في نشاطهم الصبياني.. أُسلِّي نفسي وأطرد الهموم التي نشأت تتسرَّب إلى حياتي، ومثال على ذلك، انخرطت مع هؤلاء المجانين قبل أيام فيما كانوا يُسمُّونه بالقنص، وهو حينما يبصر أحدهم في شاشة المنظار إحداهن تخلع ثيابها لتستبدل به غيره، أو تكون خارجة من الحمَّام وتحاول ارتداء ثيابها.. كان يحدث ذلك عندما يُصوِّب منظاره من إحدى النوافذ التي تطل على عمارة مقابلة، وكانت تضم طالبات من الجامعة، فكُنَّ يسكُنَّ الطابق الثاني ويتركن نوافذ الغرف مفتوحة ليلًا

للتهوية في الأيام الحارة، فلم يكُنَّ يدرينَ بفعلتنا لأننا كُنَّا متستِّرين بسواد الظلام، ولم يكُنَّ يدرين بأنهن مكشوفات لنا. فكان كلما لمح أحدنا إحداهنَّ نادى الآخرين فنتناوب على التطلُّع عليهنَّ، فبهذا كنت أطمس همومي وأُطفئُ نار أحزاني.

لكن نار أحزاني البارحة توقَّدت وتضاعفت اشتعالًا وأبت الانطفاء.. لقد وقع ما لم يكن بالحسبان.. وقع ذلك بعد أن عاد المجانين إلى عادتهم التي كانوا قد هجروها لأيام، فلقد اجتمعنا بعد العشاء نتفرَّج على عارضات الأجساد، وبينما نحن نتنقل من هذه -بعد الاكتفاء والارتواء- إلى أخرى، كاد دماغي يطير من مخبئه، وقلبي ينفجر في قفصه، حينما ظهرت على الشاشة أمّ أبنائي وهي تُعَلِّمُ المتابعات كيف يعتنين بنظافة البيت، وبرزت بألبسة ضيقة واصفة كاشفة.. هم لا يعرفونها.. لم أصدق في البداية أنها هي، فصرتُ أُحقِّقُ فيها النظرَ، وأُحقِّقُ في البيت وأثاثه، فثبت عندي أنها هي.. كانت صدمتي كبيرة للغاية.. أحسستُ بقُشعريرة تسري في جسدي، وبنِياطِ قلبي يُوشِك على التمزُّق خفقانًا وتردُّدًا، وأحسستُ كأن في دماغي جمرًا يتلظَّى.. حِرتُ في أمري، وصرتُ بين المطرقة والسندان، فهل أصرِّح بأنها زوجتي وأكفُّهم عن المشاهدة؟ فأصبِحُ حينها أضحوكة بينهم؟ أم أكتفي بالصمت وأدوس جمْرَ

الغيرة في فؤادي؟ وحتى إن كففتُهم عن المشاهدة، فكيف أكُفُّ الآلاف من المشاهدين في كل مكان؟!

نهضتُ إلى الشُّرفة بحجة أني أريد تدخين سيجارة.. نهضتُ وأنا أرتعش، لكنهم لم ينتبهوا إليَّ، فوقفتُ مُطِلًّا من الشرفة وأنا أشعر بالخزي والعار، شعرت كأني أذلُّ مخلوق على سطح الأرض.. كان ما زال صوتهم مسموعًا عندي.. سمعتُ أحدهم يقول: الوحيدة التي رأيناها الليلة تمتلك نهدين وردفين طبيعيين، وقال الآخر: يظهر أنها طبيعية في كل شيء، حتى في رموشها وحاجبيْها.. ثم قال لصاحب الهاتف: هَيَّا اشترك في قناتها وَضَعْ لها علامة إعجاب واكتب لها تعليقًا بأن تواصل نشر الجديد في القريب العاجل.. شعرتُ بتوتّر وغضب شديدين وهممتُ بأن أحمل التلفاز وألقيه على رؤوسهم، لكني لجمتُ أعصابي ونزلتُ إلى خارج البيت حنِقًا ولهانَ..

تناولتُ هاتفي واتصلتُ برقمها، لكن هاتفها كان مُغلقًا.. ذهبتُ أتمشَّى وأنا أفكِّر في التصرُّف اللائق معها، فتداخلت الأفكار في ذهني وتشابكت كما تتشابك خيوط الشَّرَك إذا لم تُجمع بمَهلٍ وتروٍّ.. فبقيتُ شاردًا لأزيد من ساعة، مستغربًا كيف قامت بذلك وهي المبتدئة في هذا المجال، ومتسائلًا عن دوافعها، ثم رجعتُ مُتسلِّلًا إلى فراشي..

ظلتْ عيناي مفتوحتيْنِ طوال الليل تنتظران طلائع الصبح، فما إن ظهرت بشائره حتى كنتُ قائمًا أجمع أمتعتي.. رآني أحدهم فسألني عن مقصدي، فأخبرته أن ابني مريض ولا بُدَّ لي من زيارته، ثم خرجتُ.

بعد ساعتين، كنت أدخل البيت وشرر الانتقام بادٍ على وجهي.. بادرتني قائلة: ما لي أراك أتيت مُتغيِّرًا على غير عادتك؟ لم أتفوَّه بكلمة، بل لكمتها حتى طرحتُها أرضًا وصرتُ أصفعها وأركلها كالمجنون، ولولا أني خشيت سماع الجيران صراخَها وانتشار الفضيحة، لَمَا تركتها.. فما كان منها إلا أن قالت: ابتعد عني يا جبان، كرهتُ عيشة الفقر والبؤس والحرمان، وما فعلتُ الذي فعلتُ إلا لتوفير ما أعينك به على مصروفات الحياة. قلتُ بصوت مزّقَتْ قوّتُه حبالَ حنجرتي: بئس المال الذي يُجنى بدَوس الكرامة ونسف الحياء والمروءة، ثم بصقتُ في وجهها وحملتُ حقيبتي من جديد وخرجتُ هائمًا لا أعرف إلى أين، حتى وجدتُ نفسي في محطة القطار، وإذا بدافع يدفعني للاتجاه صَوبَ مدينة الآباء والأجداد، علَّني أنال من بركتهم وأجد فيها وصفة النجاة من تقلُّبات هذه الحياة.

ثم حوَّل رأسه إليَّ، وقال: هل رأيت يا صاحبي ما تجنيه الحرية للنساء؟

أجبته قائلًا: أتريدني أن أصادقك فأتكلم أم أنافقك فأصمت؟

قال: بل الصراحةُ هدفي ومبتغاي، فأريد أن أعرف مَنِ الخاطئ فينا.

أنشأت أقول: إن ما أقدمتْ زوجتك على فعله لا يمكن أن يستحسنه عاقل، ولا يستطيبه إلا من استحكمت فيه شهواته، أو من غمرتْ فؤاده الأمراض والعِلل، لكن اسمح لي أن أخبرك بأن لباس العباءة الذي ظهر على أهلك كنتَ أنت مُفصِّله وخائطُه، وإذا ظهر عيب فيه فاللوم على الصانع لا على المرتدي..

لقد أدهشَتْني برودةُ أحاسيسك وأنت تحكي قصصك ومغامراتك مع أولئك الشبَّان وأنت في حالة عائلية غير حالتهم، وهب أنك كنت مثلهم فهل ترضى لك نفسك يا أخي أن تتطلَّع إلى بنات الغير وتختلس النظر إلى عوراتهن؟ هل ترضى ذلك لأختك أو والدتك؟

التفتُّ إليه فإذا به قد طأطأ رأسه وأبدى الندم على وجهه. ثم استأنفت قائلًا:

إن كل نظرة كنت تُلقيها إليهن كانت تجرُّ أهلك خطوة إلى تنفيذ ما أقدمَتْ على تنفيذه، ألم تسمع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ: لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ".

وكأنِّي بك المقصود في قول الشاعر:

عُفّوا تَعُفُّ نِساؤُكُم في المَحرَمِ *** وَتَجَنَّبوا ما لا يَليقُ بِمُسلِـــــمِ

إِنَّ الزِنا دَينٌ فَإِن أَقرَضـــــتَهُ *** كانَ الوَفا مِن أَهلِ بَيتِكَ فَاعْلَمِ

يا هاتِكًا حُرَمَ الرِجالِ وَقاطِعًا *** سُبُلَ المَوَدَّةِ عِشتَ غَيرَ مُكَــرَّمِ

لَو كُنتَ حُرًّا مِن سُلالَةِ ماجِدٍ *** ما كُنتَ هَتّاكًا لِحُرمَةِ مُسلِـــمِ

مَن يَزْنِ يُزْنَ بِهِ وَلَو بِجِــدارِهِ *** إِن كُنتَ يا هَذا لَبيبًا فَافْهَـــــمِ

مَنْ يَزْني في قَوْمٍ بِأَلْفَيْ دِرْهَـمٍ *** في أَهْلِهِ يُزنى بِغَيْرِ الدِّرْهَـــــمِ

أَمّا تفرُّجُكم على من سمَّيتهنَّ بعارضات الأجساد، ففي ذلك تشجيع لهُنَّ ودفعهنَّ إلى الغوص في أعماق الرذيلة والفجور، فكيف لك تغضب وتثور إن قامت به زوجتك، وتفرح وتستمتع إذا قامت به أخرى؟ أليس للأخرى أب غيور غير متفطِّن لها؟ أو هو متوفًّى يرقُب دعاءها فإذا هي لاهية في جَني الأوهام؟ أو ابن ليس له سلطة عليها لكن حياته انقلبت جحيمًا بين أصدقائه لانتشار الخبر بينهم؟

إنهنَّ ضحايا الجري وراء الثراء الزائف، والشُّهرة الواهية، بعرْضٍ رخيص لأجسادهن، لا يخَفْن الجهر بالمعصية، ولا يهمُّهن الحفاظ على تاج الحياء

والكرامة، ذلك التاج المفقود إلا بين الحرائر العفيفات، اللاتي يأبين بيعه ولو أعطِينَ أموال العالم بأكمله.

إن ما يفعله هؤلاء النسوة، ما هو إلا شكل من أشكال التسوُّل، لغته كشف المفاتن وإظهار المحاسن والعورات، بحثًا عن مشاهدات ولايكات وتعليقات.. كل ذلك يتم بشكل جهري ضاربًا عُرض الحائط كل المبادئ الدينية والاجتماعية والأخلاقية، مُساهِمًا في تشكيل ثقافة جديدة تكون توطئة لبناء جيل قاسٍ مغرورٍ تائه، يبحث عن كسْبٍ سهلٍ دون عناء أو بذلِ جهدٍ.

إنَّ ما يدمي القلب يا أخي ويدعو للعَجب أن تجد مِن أبناء جلدتنا مَن يدافع عن هذا المحتوى، ويعتبره حُرِّيَّة شخصية لا يجب التدخُّل فيها، لكن تزول الغرابة ويبطل العَجب إذا استحضرتَ أننا في زمان انقلبت فيه الموازين وغُيّرت فيه المفاهيم.

وكي نكون صُرَحاء، فحتى إن عجَّ اليوتيوب بمثل هذه الفيديوهات، فتبقى في عُرْف الإحصائيات عددًا لا يأبه به من بين العفيفات الشريفات، اللاتي يُمثّلن الأصل الأصيل والخُلُق الرفيع في بلدنا هذا.

أمّا عن جليسكم الذي لقبتموه بالفقيه، فما كان إلا تذكرة من الله لكم لعلَّكم ترجعون عن زلاتكم وتكفُّون عن شرور أعمالكم، لكنكم عاندتم وتماديتم.

لمستُ فيه سكونًا غريبًا، وإنصاتًا عجيبًا، حتى ظننتُه شخصًا غير الذي كان في الأول، فاغتنمتُ الفرصة، وقلت:

أنصحك يا أخي بتغيير وجهتك إلى الله أولًا، ثم إلى أهلك ثانيًا، وحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه قبل افتضاح الأمور وفوات الأوان، فلا الهروب يجديك نفعًا، ولا مدينة الآباء تقيك وجعًا، وأوصيك بتغيير الأصحاب ومعاشرة الأبرار، فهذا رأيي في قصتك، وجوابي لك عن سؤالك.

حوَّل رأسه إليَّ وشكرني بقوة، ثم نزل عند أول محطة بعد أن صافحني مُودِّعًا.

# حديقةُ الحَزانى

في أثناء دراستي بالمعهد العالي للتواصل والإعلام تخصُّص الصحافة المرئية والمسموعة، كُلِّفنا بوصفنا طلبة بإنجاز ريبورتاج على أرض الواقع، وخُيِّرنا بين أن يكون هذا الأخير صوتًا وصورة، وبين أن يكون بالصوت فقط، فحِرْتُ في اختيار موضوعٍ للبحث، حتى عرض عليَّ صديق لي كنت أتواصل معه عبر الإنترنت، زيارةَ حديقة توجد بمدينته يتردَّد إليها مَن غمره الحزن وسكنه الأسى حتى يُرتِّب أمور حياته من جديد، ويُجدِّد أمله فيها، فأستمع إلى قصص أولئك وأتعرَّف إلى همومهم وأحزانهم وأوثِّقها، وكانت الحديقة تُعرَف بحديقة الحَزانى.

لم أوافق في بادئ الأمر، خشية أن أجد رفضًا من هؤلاء، لكن الصديق شجَّعني وضمن لي أن ألقى مَن يُرحِّب بالفكرة ويستحسنها؛ لأن منهم مَن يبحث عن الراحة النفسية في البَوح بمشكلاته ومشاركتها الغير، وإذا صادفتُ من يأبى الظهور على الفيديو، فيكفي تسجيله صوتيًّا فقط، أو دون إظهار وجهه على الشاشة.

تحمّستُ للفكرة، فجمعتُ أمتعتي وأجهزة التصوير ثم سافرتُ إلى تلك المدينة، فزرتُ الصديق وتبادلنا الأخبار والأحاديث، ثم دلَّني على الحديقة التي تتوسَّط المدينة..

لقد كانت كبيرة للغاية، محاطة بسياج حديدي متين، قد غطتْ أشجارُها أشعةَ الشمس ومنعتها من الاستلقاء على سطح الأرض..

ولجتُ بابها العريض فشدَّ انتباهي جمال منظرها في الداخل، أزهار مُتعدِّدة الأشكال والألوان، ومساحات كبيرة مُغطَّاة بعُشب برمودا المميَّز بالكثافة والمتانة، ونافورة ماء يتبَقْبَقُ ماؤها في باحة الحديقة، وممرَّات تنعرج من هنا وهناك في كل مكان، ينغرس في حوافها كراسٍ ومقاعد متباعدة فيما بينها.. كانت منبعَ بهجة وسرور كأنها صُمِّمت خُصوصا لتواسي الأفئدة العليلة، وتعالج النفوس الكئيبة.

لكن الشيء البارز الذي كان يثير انتباه كل الزائرين، هو مظهر الحزن الذي يكسو وجوه الجالسين فرادى على المقاعد، كأن منبع الهم الذي أصابهم واحدًا.

كان الحَزانى يختلفون جنسًا وأعمارًا، لكنهم متفقون في حالة السكون وشرود الذهن، فوقفتُ عند أولهم وكان رجلًا شيخًا طاعنًا في السن مندسًّا في جلبابه، قابضًا عُكَّازًا بيده، ومُحملِقًا في مكان ما عاليًا.

ألقيتُ عليه التحية، فردَّها بابتسامة حزينة هادئة، ثمّ استأذنته في الحديث معه وتسجيل الحوار صوتًا وصورة، فلمَّا أبدى رضاه، صوَّبت آلة التصوير نحونا وجلستُ بجانبه حيث يجلس، ثم سألته عن الشيء الذي يُفكِّر فيه، فشرع يقول:

أفكِّر يا بُنَيَّ في السنوات التي انسابت كما تنساب المياه في النهر الشديد الانحدار، ولم يعلَق منها في الذاكرة إلا الأحداث المُهِمَّة، كما لا يعلَق في قاع النهر إلا الحجارة الثقيلة.. أفكِّر في الشخوص الأُلى غادروا هذه الحياة كأنهم لم يلبثوا فيها إلا يومًا أو بعض يوم، ولولا الوقائع التي عشناها معهم لما ذكرناهم ولا افتكرناهم. ثم أشار بأصبُعه إلى نفس الموضع الذي رأيته يحملق فيه آنفًا، وكان عبارة عن بناية عريقة مهجورة خلف الحديقة وقال:

أَترى تلك البناية المُهمَلة؟ إنها محطة بنزين قديمة، أمضيتُ فيها أربعين سنة عاملًا أضخُّ المحروقات في الشاحنات والسيارات، أتناوب فيها مع

صديق لي، فأعمل أسبوعًا بالليل وآخر بالنهار.. كانت المحطة تجمع مختلف الحِرف من ميكانيك، وكهرباء وغسل السيارات وغيرها.. لقد كُنَّا كوكبة من العُمَّال نقضي أوقاتنا في مرح ونقاش وحديث، نتحدَّث عن أنواع السيارات التي تعرَّفنا عليها يومئذ، وفي أسماء قطع الغيار الجديدة والمستعمَلة وأدوارها، فنستفيد من هذا وذاك، ونتكلم عن الأخبار الرائجة في الجريدة أو المذياع، أو التلفاز الملوَّن حينئذ بالأبيض والأسود، فنُعلِّقُ عليها ونُحلِّلها، ونتضامن مع المحتاج مِنَّا، ونقضي حوائج بعضنا بكل رضًا وخضوع، ونبدأ عملنا بكل فرح وائتلاف، ونختمه بلا ضجَر ولا نزاع..

إن كل بقعة من تلك البُقَع تحتفظ بآلاف الخطوات التي خَطوناها عليها، وتختزن آلاف الذكريات التي اجترحناها فيها، فيا ليت شِعري لو كان بإمكانها النطق لتعيد على مسمعي ما غاب مِن ذاكرتي، ويا ليت شعري لو كان بإمكان الزمان أن يتراجع إلى الوراء فأسافر معه إلى تلك الأيام، فلقد غادر كل رفاقي وبقيت وحيدًا أتجرَّع ألم الوحدة والوحشة.

قاطعته قائلًا: هل تذكر ذكرى حسنة بَقِيَتْ عالقة في ذاكرتك؟ وهل من أخرى سيئة؟

صمَت هنيهة من الزمن وأنبس قائلًا:

إن أعظم ذكرى ما زلتُ أحتفظ بها هي يوم حفل زواج ابنة صاحب الشركة بأحد أصدقائنا، وكان أمين صندوق للمتجر الخاص ببيع غيار السيارات.. كانت ليلة مشهودة.. أُنظر إلى تلك الساحة كم هي فسيحة، لقد فُرِشَتْ كلها زرابيًّا وسجاجيد، وزُيِّنَت بالأنوار والأزهار، ومُلِئَت عن آخرها موائد وكراسٍ، فلا يُعرَف مِن طعام شَهِيٍّ إلا قُدِّم فيها، ولا من مشروب لذيذ إلا كان في متناول اليد.. فحضر الفقراء والمساكين والأحباب من عُمَّال وأقارب، وسهروا على أحلى الأنغام في لطف وانسجام. لقد كانت أعظم ذكرى بقيت عالقة في ذاكرتي.

أما أسوأ ذكرى أذكرها وهي يوم وفاة صديقنا خالد، لقد قضى المسكين بين أيدينا وأمام أعيننا. أَتَرى يا بُنَيَّ تلك الكُوَّة المتطرِّفة من الطابق الثالث؟ وأشار بأصبعه إلى ثغرة منعزلة في الأعلى صغيرة الأبعاد، فلما أومأتُ له برأسي أن نعم، استأنف قائلًا: هي مُخصَّصة فقط لإدخال الضوء، وكانت الطيور تتخذها وكرًا لتبني فيها أعشاشها، وفي يوم من أيام الربيع، لَمَّا كان زوجٌ من الطيور يبني عشه، علِق أحدهما من قدمه في خيط من الخيوط التي جلبها لبناء العش، فبقي متدلِّيًا يرفرف بجناحيه ساعاتٍ.. حزَّ في نفوسنا ذلك المنظر،

فتطوَّع خالد لإنقاذه، فصعد إليه من داخل البناية، ثم خرج من تلك النافذة التي تظهر أسفل تلك الكُوَّة، وبعدما خلَّص الطائر، انزلقت رجله، فتمايل ثم خرَّ ساقطًا.. كنتُ حينها أضخُّ البنزين في إحدى السيارات لَمَّا سمعت ارتطامه بالأرض، لقد كان قريبًا مني، وما زال صوت ارتطامه محفوظًا في أذني، لم يلبث إلَّا ثواني وفارق الحياة -رحمه الله-. وبالمناسبة، قبل أيام فقط، وقع الشيء نفسه في نفس المكان، فبينما أنا جالس هنا كعادتي، إذا بي ألمح شِرذمة من المراهقين يتسابقون على رشق طائر عالق في تلك الكُوَّة وبنفس السبب، كانوا يرشقونه بالحجارة وهم يقهقهون ويضحكون، ولَمَّا هَمَمْتُ لصرفهم وردعهم، كان الطائر يخرُّ على الأرض ميِّتًا بضربة أحدهم. قلتُ في نفسي: سبحان الله، شخص ضحَّى بنفسه من أجل إنقاذ روح طائر، وآخر يزهقها على وقْع القهقهة واللا مبالاة.. هنالك علمتُ أنه لم يبقَ في الدنيا ما يستحق التضحية للمكوث فيها، ورغبت في الالتحاق بتلك الأرواح الطاهرة التي أخالُها مستمتعة هناك في البرزخ، في عالم خالٍ من النفاق والقسوة والخداع.

شكرته ثم دعوت له بطول العمر والثبات على العمل الصالح، وانصرفت إلى حزينٍ آخر، كان نحيف الوجه، كثيف الحاجبين، شائب الشعر يظهر على محياه الأسى والكآبة، وكان نحيلًا ضعيف البنية طويل القامة.. سلَّمت عليه

واستأذنته للحديث وتصوير الحوار معه، فوافق لكنَّه اعتذر من عدم التصوير، فاكتفينا بالتسجيل الصوتي، ولَّما سألته عن قصته، قال:

قصتي تتلخَّص في شخص انقلبت عليه الأحوال ودارت عليه الأيام؛ حتى غدا كائنًا غير موجود بعد أن كان اسمه يهتف به القاصي والداني.. بدأتْ معاناتي ليلة زفافي، وليته ما كان، فلقد كان مغناطيسًا ضخمًا يجذب المصائب بدلًا من الحديد..

كنتُ حينها قويَّ البنية، ضخم الجثة أسود الشعر، أجني من تجارتي المال الكثير، وبعد أن عزمت وإياها على بدء حياة جديدة ناجحة كانت الأمور تسير في غير مسلكها، وتجري في غير مجراها.. وللأسف لم أنتبه إلى ذلك الخُسران حتى كان القطار قد فارق نقطة انطلاقه وغاب عن الأنظار.

غفلتي وقلة حيلتي وحتى كثافة حبِّي لها، جعلوني أضعف لمطالبها وأنحني لرغباتها، فكنتُ أُسرع الخطى لاقتناء ما اشتهتْ نفسُها وهفَتْ إلى تملُّكه وحيازته، وذلك حتى أُرضيها وأجبر خاطرها، فنَمَتِ الرغبات واحتدَّت الأشهية، حتى عجزتِ الإمكانات عن إشباعها وإسكاتها، بل انعدامها جلب الويل والويلات على حياتنا.

كنتُ أجهل أن دافع الكِبر وحب الظهور والتميُّز، هو الذي كان وراء تحفيزها لاقتناء أحدث الماركات وأتفه الأشياء، ويا ليتها اكتفت بذلك فقط، بل كانت مسرفةً مُفرِطةَ التبذير، فما تلبسه اليوم لا يلمس جسدها غدًا، وما إن تعلم بإصدار مُحدَث لمساحيقها قد غزا الأسواق إلا رمت بالقديم وهُرِعَت لاقتنائه، أما إن تواضعت وشمَّرت عن ساعدَيها لإحضار الطعام فهي لا تُحسِن التقدير، فتُسرِف في وضع المقادير كأنها ستُطعِم عائلةً من عشرة أفراد، وما نحن إلا اثنان، هذا إن تغلَّبت على كِبْرها وإلا فإن أغلب طعامنا يتم في المطاعم الفاخرة.. ويا لَلحسرة، لم يكن للمُعوِز المُعسِر من رزقنا أي نصيب.

كان الكل يُحذِّرنا من عاقبة التبذير والإسراف، فكنا نتذمَّر من نصائحهم ونعدُّها ضرْبًا من الحسد وتمنِّي زوال النعمة، ثم نغض عنهم الطرْف ونستأنف على نفس الخُطى والمِنوال.

كانت هذه الزوجة المشؤومة قوية الإقناع؛ حيث اصطادتني بصنارة إقناعها حتى بِعتُ بيت والدي، ذلك الموروث العتيق الذي يحمل أريج الآباء وبَركتهم الثمينة، وزيَّنت لي فكرة تعويضه بفيلا كبيرة، نشتريها بعد تسديد الفرق اقتراضًا من البنك، ثم دوَّختني بثرثرتها حتى استبدلتُ بسيارتي القديمة أخرى جديدة استعانةً بالاقتراض كذلك.. وهكذا بدأ المال يتجه معظمه

لتسديد القروض، فَضَعُفَ رأسمال التجارة، وقلَّت أرباحها إلى أن أصابها البوار والكساد، فانقلبتُ على أعقابي وصِرْتُ أبيع ممتلكاتي لأردَّ ما عليَّ مِن ديون، فبِعْتُ الصغير من الأشياء أولًا، على أمل إحياء التجارة من جديد، لكن خاب مأمولي وهوى رجائي، فاضطررت إلى بَيع منزلي وسيارتي وأغلب أثاثي، ووجدتني أكتري بيتًا في حيٍّ شعبيّ، وأسلك مُجبَرًا مسلك التقشُّف والتقتير، لكنها سرعان ما أفصحتْ عن تذمُّرِها من هذه المعيشة، وأعلنت العدول عن استكمال حياتها بجانبي، فطلبت الطلاق بغير خجل ولا استحياء، وادّعتْ أنِّي مُهمِلٌ في النفقة عليها، فحصلتْ عليه وأخذتِ ابنها الصغير وانصرفت إلى أهلها، وتركتني وحيدًا أواجه الحياة بمصاعبها وأعاني الاكتواء بنيرانها. فهذه هي قصتي يا صديقي باقتضاب وإيجاز.

كان تأثري بالغًا بقصَّتِه، فحاولتُ مواساته والتخفيف من آلامه، ثم ودَّعته وأنا أدعو الله أن يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيثُ لا يحتسب.

وبعد مسير خطوات قليلة، لمحت عيناي رجلًا شيخًا قد ظهرتْ على وجهه علامات المِحنة والشقوة، يدفع بخطًى مرتجفة كُرسِيًّا مُتحرِّكًا تجلس عليه امرأة شاحبة اللون مُتقِعة الوجه، إلى أن اقترب من مقعد قد غطَّته ظلال الأشجار المنتَصبة، وحفَّته سيقان الأعشاب المخضرَّة، فأوقف الكرسي وركنه

قرب المقعد بحيث يتجه صوب النافورة الهائجة، وجلس وهو يتنفَّس الصعداء..

قرَّرت أن أكتفي بالتسجيل الصوتي، فحيَّيتُهما بتحية الإسلام.. سمعت الرجل يردها عليَّ وهو يحملق في وجهي مستغربًا، فلما طمأنتهما بابتسامتي المُخَدِّرة، سألني بهدوء عن مبتغاي، فكان ردي أنني أرغب في مساعدتهما إن كانا يحتاجان إلى المساعدة، وأنه من دواعي سروري الحديث إليهما، فشكرني ثم أشار إليَّ بالجلوس بجانبه وباشر يقول:

لا شك أنك لمحتَ يا بُنَيَّ كيف كانت خُطاي وأنا أدفع هذا الكرسي بمشقَّة وعناء..

ابتسمتُ في وجهه فردَّ بابتسامة خفيفة، وقال: مريضٌ يدفع مريضةً مُقعَدة، وهل رأيت غريقًا يستنجد بغريق مثله؟ الصّحّة تاج على رؤوس الأصحاء كما يقال، لكنني غير متذمِّر على ذهابها لأننا استوفينا حقنا منها واستمتعنا بها سنواتٍ عديدة، إنما أنا حزين منكسر القلب كوني خَلّفت سبعة أبناء: أربعة ذكور وثلاث إناث، قد بخَّرتهم مشاغل الحياة وجذبتهم زوبعة أعمالها، فلا نسمع منهم صوتًا ولا نرى لهم صورة، خاصة الذكور منهم.

هاجرت في العشرين من العمر إلى أوروبا وتزوَّجت هناك فأنجبت هؤلاء الأبناء، وكنتُ كلما ازداد عندي ابنًا ذكَرًا أطير فرحًا؛ لأنني كنت أظن أنني أزداد بهم حصانة ومناعة، خاصة لمَّا أهرم وأشيخ، وكان الأسى يلفّني عندما أُبَشَّر بالأنثى ظانًّا أنها عبء وثِقَل، حتى أظهرتْ لنا الأيام عكس ذلك وعرفنا العالم على حقيقته.

قبل تقاعدي عن العمل، وقبل عودتنا لاستكمال حياتنا هنا، لم نكن نعرف منهم زيارة ولا اتصالًا ونحن نعيش بجوارهم في مدينة واحدة، اللهم إلا البنات منهم من حين لآخر.

مِن الذكور مَن تزوَّج نصرانية وانغمس في ثقافتها وتقاليدها، ومنهم مَنِ اتخذ خليلة وراح يعيش عيش الزَّهو والطَّيَشان، ومنهم من ما زال تائهًا مُتردِّدًا بين السجون وأصدقاء السوء، لا دنيا حصَّل ولا دين اتَّبَع. فما جَنينا من رحلتنا إلا الهُراء والخَواء، وما خلَّفنا إلا ذريةَ سوءٍ ومضرَّة، وها نحن نعاني الأمراض والأوجاع، ولا نجد بجانبنا حتى مَن يُحَضِّر لنا وجبة طعام أو يمدُّنا بأقراص دواء..

ليس المهم يا بُنيَّ كثرة الأبناء، بل الأهم أن تجد فيهم قلبًا رحيمًا ونفْسًا بارَّة.

كانت المرأة تمسح عَبراتها الذارفة على وجنتيها لَمَّا كان يُلقي هو بتلك الكلمات، فعلمتُ أنهما يشكوان ألمًا فظيعًا وحسرة عظمى، واستحضرتُ بعض أبيات الشاعر يشكو فيها عقوق ابنه:

غذوتُك مولودًا وَعُلتُكَ يافِعًـا *** تُعَلُّ بِما أُحني عَلَيكَ وَتَنهـلُ
إِذا لَيلَةٌ نابَتـكَ بِالشَكو لَم *** أَبِتْ لِشَكواكَ إِلّا ساهِرًا أَتَمَلمَلُ
كَأَنّي أَنا المَطروقُ دونَكَ بِالَّـذي *** طُرِقتَ بِهِ دوني فَعَيناىَ تَهمُـلُ
تَخافُ الرَّدى نَفسي عَلَيكَ وَإِنَّني *** لَأَعلَمُ أَنَّ المَوتَ حَتمٌ مُؤَجَّـلُ
فَلَمّا بَلَغْتَ السِّـنَ وَالغايَةَ الَّتـي *** إِليها مَدى ما كُنتُ فيكَ أُؤَمِّـلُ
جَعَلتَ جَزائي غِلظَةً وَفَظاظَـةً *** كَأَنَّكَ أَنتَ المُنعِمُ المُتَفَضِّـلُ
فَلَيتَكَ إِذْ لَم تَرعَ حَقَّ أُبوَّتـي *** فَعَلتَ كَما الجارُ المُجاورُ يَفعَـلُ

ثم خطر ببالي أن أسأله عن معاملته مع والديه لمَّا كانا في الحياة فخجلت، وبعد تردُّد قويٍّ انفلتَ لساني فسألته عن ذلك.. صمتَ هنيهة من الزمن، وردَّ بعد أن اغرورقت عيناه بالدّمع:

أراك ذكيًّا يا بُني بسؤالك هذا، فلقد تقصَّيتَ السبب بأقصر طريق، وتتبَّعت الأثر سريعًا إلى المنبع، فيا ليتني كنتُ أعرف هذا القانون منذ الصِّغَر، ويا ليتني استوعبتُ هذه القاعدة وأنا صبيٌّ طريُّ العود، لقد ركبني الجهل فأعماني عن معرفة حقوقهما، وغرَّني الصِّغَر وأوهمني أن الصّحّة دائمة، ولن أحتاج في يوم إلى أحد كما كانا يحتاجان إليَّ.. كان جبينُ أبي يتصبَّب عرَقًا من أجل إطعامنا، لقد كان ينصهر تحت الأشِعَّة الحارقة في الحقول، ولمَّا يطلبني للمساعدة، كنت أختفي عن أنظاره، غير مبالٍ بمعاناته وأتعابه، فكان حينما يلقاني يكتفي بالقول: ستُريكَ الأيام يا بُنَيَّ ثمرة إيلام الوالدَينِ.. وعندما هاجرتُ إلى أوروبا، أخذتني الدنيا مأخذها فاعتنيتُ بنفسي وانشغلتُ بها عنهما حتى وصلني خبر وفاتهما، فمكثتُ سنين عديدة أتجرَّع مرارة الندم وأبتلعُ ركام التحسُّر، ثم أجبرتني الأقدار على أن أخلِّف الأبناء وأشرب بسببهما من كأس العذاب الذي سقيته لوالديَّ، ولا شك أن لعنتهما ما زالت تلاحقني لتذيقني ما أنا فيه.

وما إن أتمَّ جملته، حتى كانت العَبرات تنزل على خديه مترادفة وَدون انقطاع. دعوت لأبنائه بالهداية، وله بالتيسير وصلاح الأحوال، ثم ودَّعته لأغادر الحديقة والأسى يملأ جوانحي، والأسف يُقِضُّ مضجعي من هول ما سمعت من قصص الناس، حتى احتقرتُ ما أشكوه من مشكلات، وهوَّنتُ ما أصابني مِن مصائب.

# في شَرَكِ المعاناةِ

ظلَّ صدى الفرحة يتردَّد في داخلي أيامًا متتالية بعد رؤيتي لنتيجة مباراة ولوج وظيفة التعليم؛ لأنها على حسب رأيي السبيل الوحيد لإخراجي من وحل المعاناة والعِوَز والضِّيق، خاصَّة بعد بلوغي من العمر أربعين سنة، وهو العمر الذي يصعب فيه تعلُّم صنعة جديدة، أو شق طريق حديث للكسب قد يتطلب جهدًا كبيرًا وصبرًا طويلًا أو مالًا كثيرًا..

كنتُ قبل اجتياز هذه المباراة أعمل حارس أمن في إحدى المؤسسات العمومية، وكنتُ حينها أعيل ستة أفراد: الزوجة والابن والأم وثلاث أخوات.. كانت الأجرة بالكاد تكفي لتغطية الضروريات من الحياة، بل أحيانًا ألجأ إلى الاقتراض من هذا وذاك لتغطية ما استجدَّ من مصاريف الحياة.

غمرت الفرحةُ كل أفراد العائلة، لكن انخفضت حِدَّتُها لَمَّا تلقَّيت من طرف أحد الأصدقاء خبر تعييني، فلقد كان التعيين بمدينة غير التي أقطنها، وتبعد بما يزيد على الألف كيلومتر..

بعد فترة التكوين التي لم تدُم إلا بضعة أيام في المدينة المقصودة، توجَّهتُ إلى النيابة من أجل الحصول على مكان تعييني ومقرٍّ عملي..

وكانتِ الصدمة مضاعَفة لمَّا تبيَّن لي أن مقر العمل سيكون بمنطقة نائية وسط الجبال الشاهقة، تزيد بُعدًا عن هذه المدينة بما يقرب مائتي كيلومتر، وأن اللغة الأصلية لأهلها هي الأمازيغية التي لا أفقه فيها شيئًا.

لقد تم اختيارنا نحن العشرة لسدِّ الخصاص الحاصل في هذه المجموعة المدرسية، ستة من الأساتذة وأربع من الأستاذات، وُزِّعنا على الفرعيات الأربع حسب المطلوب من العدد، فكان من نصيبي أن أعمل بأبعد فرعية أنا وصديقي أحمد والزميلتان حسناء وكريمة.

كان اتفاقنا نحن العشرة أن نلتقي في إحدى القرى الصغيرة يوم السوق، حيث كانت تبعد عن مقر النيابة بنحو سبعين كيلومترًا، وبها سنجد ما يُعرَف بـ: "الخَطّافَة" وهم أصحاب السيارات الشبيهة بالحافلات لكنها أصغر حجمًا، يحملون فيها الناس إلى السوق بطريقة عشوائية وغير قانونية، فيحشرونهم في الداخل كما تُحشَر الأنعام في الحظائر، ثم يُوَجَّهون إلى أعلى السقف حينما يمتلئ الجوف عن آخره، وفي أثناء العودة من السوق، تتضاعف الأحمال وتزداد

الأثقال مع البضائع والمشتريات، وليس لصاحب السيارة الحق في رفض أي راغب في الركوب إلا إذا انعدمت الأماكن الشاغرة.

جاء موعد اللقاء، وها نحن ننتظر لحظة الانطلاق من السوق إلى الدوَّار، فما زال يفصل بيننا نحو تسعين كيلومترًا، لكن الانتظار طال، وساعة الانطلاق التي وعدَنا بها السائق قد مرَّ عليها أكثر من ساعة ونصف.. بدأ مزاجنا يتعكَّر، وشرعت إبر الانفعال تؤزُّنا أزًّا فكُنَّا نكظم غيظنا حياءً وخجلًا، حينها بدأنا نفهم أن قيمة الزمن غير مدرَجة في قاموس هؤلاء.

أخيرًا انطلقنا.. كان الازدحام في الداخل شديدًا بحيث لا يقوى الواحد على التحرُّك يمينًا أو شمالًا في مكانه.. حسِبتُ وأنا أجول بعينيَّ خمسة وثلاثين نفْسًا بالداخل، أما الذين صعدوا على السطح –والذين تمكَّنتُ من حساب عددهم انطلاقًا من أرجلهم المتدلية على النوافذ– فكانوا أكثر من خمسة عشر شخصًا..

كان الطريق يزداد ارتفاعًا كلَّما تقدَّمنا في المسير، وكانت التكهُّنات والأفكار السلبية تملأ خواطرنا.. ماذا لو تعطَّلت فرامل السيَّارة؟ ماذا لو انفجرت إحدى العجلات أو انفصلت عن الإطار؟ ماذا لو سهى السائق في أحد المنعرجات؟

كان سكان الدوَّار منشغلين في أحاديثهم غير مبالين، أما نحن الأساتذة فلقد تملَّكنا الرعبُ ومَنعنا من الكلام طيلة مسار الرحلة.

في منتصف الطريق، وبعد أن حلَّقت بِنا السيَّارة عاليًا وسط المنعرجات، استقبلتْ مسامعنا استغاثةً من الأستاذة كريمة، والتي استولى عليها الدُّوار واكتسحتها الدَّوخة، فأشرْنا على السائق بالتوقُّف لتقديم يد المعونة لها..

نزل الرُّكَّاب المُتقدِّمون ليفسحوا لنا الطريق للنزول، فما إن وضعتْ كريمة قدمها على الأرض حتى اندفع ما كان في جوفها إلى الخارج، أما أنا فلقد نزلتُ بِرِجْل واحدة، أما الأخرى فكانت مُخدَّرَة كأنها غير موجودة، بسبب وضعية الجلوس وضيق المكان، فكان هذا النزول فرصة لاسترجاع الحياة فيها، وفرصة للتمتُّع بالمناظر الطبيعية الممدودة في كل مكان.

واصلنا المسير إلى مغرب الشمس، وكان وصولنا إلى آخر شبر ينقطع فيه الطريق المُعبَّد بالزفت، وهو نفسه مركز المجموعة المدرسية حيث يوجد به ثلاث حجرات من البناء المُفكَّك، غير مُحاطة بسور، وعلى بُعد أمتار توجد حجرة صغيرة مُخصَّصة للإدارة، وبجانبها بعض الدكاكين الصغيرة والمقاهي البدائية، يقابلها من الجانب الآخر مسجد صغير ومستوصف متواضع وبعض الدكاكين، أغلبها لا يُفتَح إلا يوم السبت حيث يقام السوق الأسبوعي في البُقَع

الموجودة أمامها وعلى جانِبَي الطريق، أما العربات المجرورة بالحمير فكانت منتشرة في كل مكان.

كان المنظر مخيفًا وباعثًا للاشمئزاز؛ حتى إني رأيت الأستاذة كريمة تذرف الدموع وهي تنزل من السيارة، وسمعتُ أخرى تتحدَّث في مكالمة هاتفية تصف المكان لأحد من عائلتها تقول: المكان ضيق للغاية، جبل شاهق عن اليسار، ومنحدر سحيق إلى الوادي عن اليمين، وبعض المنازل المنثورة في كل ناحية وسط الجبال. أشعر أنِّي سافرتُ عبر الزمن إلى الماضي السحيق، فكل شيء هنا يبدو عتيقًا متواضعًا، ولولا هذه السيارة والأعمدة الكهربائية، وهذا الهاتف الذي أمسكُه بيدي لصدَّقت نفسي أني مسافرة إلى الماضي.

لم يكن الموضع هو نقطة نهاية الرحلة، بل نقطة بداية مسير آخر يمتدُّ إلى عشرين كيلومترًا تقريبًا، مُسيَّرٌ عبر سبيل شُقَّ في صدور الجبال، لا يسع إلا لمرور سيارة واحدة، وإذا تقابلتْ سيارتان فلا بد لإحداهما أن تتراجع إلى الوراء؛ حتى تركن في موضع جُهِّزَ سابقًا لهذا الغرض -حيث نهشتْ أسنان الجرَّافة عدة أمتار من الجبل- ولكي تفسح الطريق للوسيلة الأخرى المقابلة لها، وأيُّ خطأ من السائق لا قدَّرَ الله، تقع الكارثة، ويكون الجميع في ضيافة الوادي الماكث في القاع بين الجبال.

كان علينا أن نقِلّ سيَّارة أخرى تنقلنا إلى الدُّوّار؛ لأن الأوّل كان له اتجاه آخر، وبما أن الوقت كان متأخرًا، لم نجد من "الخطَّافة" مَن يُحقِّق لنا مبتغانا، فكان لزامًا علينا أن نؤجِّل الرحيل إلى اليوم الموالي.. عزمنا على تناول العشاء داخل حجرة دراسية، وكان مِمَّا يشيع تناوله في تلك المنطقة: طاجنٌ من لحم الغنم أو الدجاج وبعض الخضر كالبطاطس والجزر. طلب المدير ثلاثة طواجن من إحدى المحلات الصغيرة التي تُحضِّر إضافة إلى ذلك مشروب الشاي والقهوة.. انقسمنا إلى مجموعات صغيرة، حيث التفَّتْ كل مجموعة حول مقعد وُضِع فوقه الطاجن والخبز وكؤوس شاي، وانفردت بأحاديثها التي كانت غالبًا تدور حول ما أبصرته الأعين من وعورة المسالك وقساوة المكان.

بالليل كان مبيتنا نحن الأساتذة بالحجرة الدراسية فوق المقاعد التي رتَّبناها وجهَّزناها على أشكال أسِرَّةٍ، لكنها كانت ليلة قاسية على ضيوفها حيث استقبلتهم ببرودتها الشديدة، جعلتهم يستيقظون خلالها مرات عديدة، ولولا العياء الشديد لما غفَوا لحظة واحدة. أما الأستاذات فلقد بِتْن في المسكن الخاص بأطر التدريس قرب إحدى الحجرات الدراسية، وكانت تقيم فيه أستاذتان تعملان في المركز.

في يوم غد، ضرب لنا المدير موعدًا مع أحد "الخَطّافَة" لينقلنا بأمتعتنا إلى أمكنة عملنا، حيث تنزل كل مجموعة في الدّوّار المُخصَّص لها للعمل فيه، وكما العادة التي بدأنا نألفها رغمًا عنَّا، هو التباطؤ والتأخُّر وعدم احترام المواقيت، فلم يظهر للسائق أثر إلا في الوقت الأول من الأصيل.

ركبنا السيَّارة مع سائقها المُسمَّى حَسن، وطوينا الأرض صعودًا في طريق غير مُعبَّدة، يتناثر الغبار فيها، وتتسرَّب الأتربة إلينا على الرغم من إغلاق جميع النوافذ..

كادت القلوب أن تبلغ الحناجر من شدة الخوف لَمَّا اختلسنا النظر إلى المنحدرات، وإلى الوادي الذي يظهر مثل الحبل الرقيق المُلقى في قعر بئر غائرة، وعزمنا في دواخلنا ألا نقطع هذا الطريق مرة أخرى إلا مُشاة على الأقدام.

كانت السيارة تقف كل مرة نصل فيها إلى دوار معين، فينزل الأساتذة بأمتعتهم، ثم نواصل السير، إلى أن وصلنا قُبَيل أذان المغرب إلى آخر بقعة يمكن أن تصلها عجلات السيارة.. ظنَنَّاها النهاية، لكن كانت صدمتنا كبيرة لَمَّا علمنا أنه يلزمنا نصف ساعة أخرى مشيًا على الأقدام، ننزل فيها إلى الوادي ثم نقطعه، ونصعد إلى الجهة الأخرى على المُدرَّجات، ونحن نمشي في منحى مائل ونتبع أحد الممرَّات الذي وصفه لنا السيد حسن حتى نصل إلى الدوَّار

المقصود. أما الأمتعة، فلقد تكلَّف هو بإرسالها لنا مع بعض أصحاب الدوَّار على ظهور الحمير والبِغال.

ونحن نصعد في مدرجات الجبال من الجهة الأخرى، وسط أشجار الجوز واللوز الكثيفة، سهونا عن الممرِّ الذي وصفه لنا فتهنا في الطريق وتشابهت علينا الاتجاهات، واستولى العياء على الزميلتين كريمة وحسناء، وبدا التذمُّر على وجهيهما، وكان لسان حال كل واحدة منهما يقول: تبًّا لهذه الوظيفة وما جلبته من شقوة وعناء.

أوشك الظلام أن يبسط رداءه على المكان، وأوشك احتمال البقاء في العراء أن ترتفع نسبته، خاصة أن شبكة الاتصالات غير موجودة.

فجأة -وكأنَّ العناية الإلهية أبت لنا الضياع فوق ضياعنا- ظهر لنا أحد الرُّعاة يرعى الغنم والماعز، فلوَّحتُ له بيدي، ثم قصدته وأنا ألهث.. أوضحت له مقصدنا، فدلَّنا على الممرِّ الصحيح الذي كُنَّا قد انحرفنا عنه قليلًا..

كان الظلام دامسًا لمَّا وصلنا إلى الدّوّار، فقصدتُ وزميلي المسكن المجاور للحجرات الدراسية، أمّا الأستاذتان، فقصدتا بإرشاد من إحدى التلميذات دارًا من الدورِ الشاغرة على وجه الاستئجار حيث كان مُجهَّزًا لهما سلفًا، بوصاية من المدير لأحد أعيانِ الدوَّار.

عند وُلوجنا المسكن، مددتُ يدي لأنير المصباح، لكنِّي سرعان ما انتشلتُها لأنَّي تذكَّرت أن لا وجود للكهرباء في هذا المكان، فارتعدتْ أعصابي وتفكَّكَتْ أوصالي، واستحضرتُ تمرُّغي في الأنوار الساطعة، واستهلاكي المُفرِط للطاقة..

بعد هنيهة، طرق علينا الباب أحد الجيران ليصحبنا معه لتناول العشاء، فذهبنا ونحن نتمايل عياءً وتعبًا، دخلنا فإذا هو بيت متواضع، حصير على الأرض، وخشب في السقف... ولم تمر إلا دقائق حتى حضر العشاء، وكان كالعادة، طاجن مِن قِطَع البطاطس وقليل من الجزر وقطعة من اللحم القَديد، مع أكواب للشاي، وكُنَّا خمسة أشخاص... في أثنائها عُرِض في مخيلتي ملازمة الأطباق الفاخرة، والأطعمة المُتعدِّدة، والولائم الفاحشة فأحسست بجَناني ينزف دموعًا، وبأشلائي ترتعش اضطرابًا..

كان رجوعنا إلى البيت مباشرة بعد آخر لقمة ابتلعناها، فصلَّينا فريضتنا وتمدَّدنا للنوم.

استيقظتُ باكرًا ففتحتُ باب المسكن الذي يُؤويني وصديقي أحمد، وكأني راغب في إلقاء التحية على ذلك الجبل الشامخ الذي يقابل مسكننا، والذي ظل صامدًا وسيظل إلى الأجل الذي كُتِب له... جبل ليس كالجبال التي عهدتها في

مدينتي الحبيبة، بل حينها، علمتُ أني لم أكن أضع هذا الاسم في مُسمَّاه الحقيقي، وتأكَّد لي أنه كثيرًا ما أكرمنا تلك الهضاب الناعمة حينما أطلقنا عليها اسم الجبال، وكم من شيء لا تُعرَف قيمته حتى تُعلَم حقيقته... جسامة تأخذ بالألباب، وانحدارات تبعث الخوف في نفوس الناظرين إليها قبل الماشين قربها، بالنهار تلعب دور الأم الحنون الباعث للراحة والاطمئنان، وبالليل تتحوَّل إلى وحوش ضخمة، تفتح أفواهها لافتراس من يُدغدِغها بقدميه الرطبتين... فتحتُ الباب راجيًا استكشاف الأجواء المحيطة بالبيت، فهذا أول صباح أعيشه في هذا الدوَّار الجديد.. تقدمتُ بخطوات إلى الأمام لأرمق كل جانب، لكن كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت تلك الجبال تُحيطني من كل جهة، كأنها تسلب مني بصيص الأمل والشجاعة المتبقية لمحاولة الهروب من هذا السجن العاري السقف... رأيت مسالك وعِرَة، لا ترى فيها انبساطًا ولا تعرف فيها اتِّزانًا، حينها عرفتُ قيمة الانبساط والتمدُّد، وتساءلتُ كيف كنت سأقضي أيام الصبا في لعب الكرة لو كنت أقطن في هذا المكان؟! وهي اللعبة التي كنتُ بشغف أهواها... ثُمَّ رميتُ ببصري بعيدًا فرأيت أطفالًا يمرحون ويلعبون وهُم عُراة إلا بما يستر عوراتهم، وحفاة إلا بما يكفيهم عن ملامسة التراب، فشعرت بأسًى يملأ قلبي، وبدمعة تملأ عيني، وتذكَّرت كم كسوة تخلَّيتُ عنها، أو رفضتها لأن لونها لم يجذبني أو لأن ثوبها لم يعجبني، بعدها

لمحتْ عيناي أشجارًا تمشي، فتصلَّبتُ متعجبًا أتبيَّن الأمر فإذا هي نساءٌ يحملن حطبًا على ظهورِهن، أتين بها من الغابات القريبة، بل قطعن جبالًا للعثور عليها، فذهبتْ بي مخيلتي إلى الراحة التي نعيشها، ورغد العيش الذي نحظى به، ساعتها شعرتُ بدوار يقتحم رأسي، وبحزن عميق يتملَّكني، ووحشة قوية بسطت جناحها عليَّ، فكتمتُ ذلك عن صديقي حتى لا يصيبه ما أصابني، ولا يخطر بباله ما خطر ببالي... لكن بعد حين تبيَّن لي أن رفيقي يشكو مِمَّا أشكو منه ويعاني مِمَّا أعاني، وكيف لا ووحشة المكان قاهرة غالبة!

الليلة الأولى التي قضيناها بهذا الدوَّار مرت سريعًا، فالعياء الذي طلى أجسادنا نتيجة المشي الطويل بين المرتفعات، وفي مدرجات الغرس على انحدارات الجبل، والتيه الذي عرفناه في طريقنا للدوّار، والعشاء الذي تناولناه في بيت الجيران، والصمت المسيطر على الفضاء المجاور، كل ذلك ساهم في حصولنا على نومة عميقة هادئة داخل حجرة مظلمة، محصورة بين أكوام من التراب، وأحزمة من الحجارة الصلدة... لكن الليلة الثانية أبت أن تكون كسابقتها، فالوحشة كانت قد وجدت سبيلها إلينا، وشيَّدت عُشَّها في صدورنا، وكيف لا، والظلمة قد ألقت رداءها على وجوهنا، وأثقلت جفوننا حتى أصبحتْ أعيننا لا ترى إلا الظلام الدامس، فما أغنتْ تلك الشمعات التي

تُضيء على استحياء، ولا تلك المصابيح المحمولة التي يخرج شعاعها خروج المرعوب من معركة حامية الوطيس... أما السلاح الثاني الموجَّه إلينا فكان ذلك الصمت المخيف، فالمذياع وقفتْ إذاعاتُه وقفة الصائم عن الكلام، فلم ترأف بحالنا ولم تعبأ بحاجتنا إليها... أردتُ قطع هذه الوحشة، وأتلهَّى عن التفكير في هذا الوضع الجديد، فتناولتُ كتابًا كنتُ قد جلبتُه معي، وكان من أدب السجون؛ حيث يتحدَّث مؤلفه عن الأحداث التي عاشها صحبة بعض السجناء طيلة عشرين سنة، والحمد لله، كان هذا الكتاب تسلية لي ولزميلي الذي كنت أُحدِّثه عن القصص المثيرة للدهشة، والتي صاغها المؤلف بكلمات وعبارات مؤثرة جدًّا، وكانت مصدر مناقشتنا في عدة مواضيع ألهتنا عن الركون إلى الوحشة القاتلة... بل جعلتنا نُردِّد في داخلنا: الحمد لله نحن هنا بألف خير.

مرَّ أسبوع كامل، ونحن نعاني الوحشة والعزلة عن الناس الذين يتكلَّمون لغة غير لغتنا، وقليل منهم مَن يستطيع التكلُّم بالعربية... حتى الكبار، أَلِفُوا التكلم بالأمازيغية، ولا ينطقون العربية إلا تَكلُّفًا.. ولحاجتنا إلى التعرف على أخبارهم ومعرفة ثقافتهم حاولنا ربط علاقة مع بعض التلاميذ الكبار السن، ففتحنا لهم باب البيت، واستضفناهم بشكل متكرِّر بعد صلاة العشاء، وكُنَّا

نستفسر منهم عن المنطقة وتقاليدها وماضيها الذي استقَوه من آبائهم، فنقضي معهم أوقاتًا مُمتِعة تُنسينا ألم الوحشة والوَحدة.

كانت المستويات التي أُسنِدَت إليَّ من أجل تدريسها هي المستويات من الثالث إلى السادس في مادة اللغة الفرنسية، أما زميلي أحمد فأُسنِدَت إليه نفس هذه المستويات لكن لمادة اللغة العربية، وقُدّم المستوى الثاني إلى الأستاذة كريمة، والمستوى الأول إلى الأستاذة حسناء.

أما المتعلِّمون، فكانوا في منتهى الأدب والحياء والانضباط، إلا أنهم كانوا يلقَون صعوبة في الفهم لاختلاف الألسن بيننا، خاصة صغار السن منهم.

كان طعامنا مِمَّا جلبناه معنا من السوق: خضر وقطاني وسمك معلَّب وبيض، أمَّا اللحم فكُنَّا لا نأكله إلا إذا زرنا السوق الأسبوعي، الكائن حيث توجد إدارة المجموعة المدرسية، والذهاب إلى السوق يحتاج إلى نية مسبقة، وتخطيط وعزم، وإقرار وحزم، فهو ليس كالأسواق الشائعة في مُدُنِنا، والبعيد فيها لا يتعدَّى الوصول إليه أكثر من ثلاثين دقيقة، بل الوصول إلى هذا السوق يستغرق أكثر من ساعة ونصف ذهابًا في شاحنة لا يحكمها قانون ولا تضمها مدوّنة، بل يحكمها الوضع والمناسبة والظروف، كما يستغرق الذهاب أكثر من ثلاث ساعات مشيًا على الأقدام، والرجوع كذلك!!... وأما السوق فالبشر

فيه أكثر من السلع أضعافًا مضاعفة، والخضر فيه تستغيث حالها وتشكي ربها من ظلم الظالمين لها، فجمالها ذبل، وبريقها رحل، وأيدي المبتاعين لا تبرح عن دعكها، فلا يكون حظك في الغالب إلا ما فَضُل عن الناس مِنَ المهترئ المتهالك.

أما الخبز، فكان التلاميذ يجلبونه إلينا، وكانوا يُسمُّونه "تَنّورْتْ" وهو خبز يُطبَخ على نار الحطب بعد أن يُطلَى العجين في قبة من الطين من الداخل، فيصير شكله أخيرًا كجزء من الكرة المُقطَّعة في المنتصف، وطعمه جيد عندما يكون ساخنًا، بخلاف ما إذا تُرِك حتى يبرد. وإذا -لا قدَّر الله- نسي المُتعلِّمون جلبَه إلينا، فكان مصيرنا المبيت على معدة فارغة.

أما الماء، فكانت معاناتنا معه كبيرة جدًّا؛ إذ كان منبع العين على مسافة كيلومتر ونصف.. كنا نمشيها مشيًا على الأقدام تارة، وعلى حمير الجيران تارة أخرى، فكان أشقى يوم عندنا هو يوم السقي، وأشقى منه يوم نُقرِّر غسل الملابس؛ إذ كنا ننزل إلى الوادي حتى نحافظ على الماء عندنا. ظللنا على هذه الحال فترة من الزمن، إلى أن ربطنا أنبوبًا بآخر يبعد عنا بنصف كيلومتر، كان آتيًا من الصهريج الذي يُملَأ بماء العين ويتفرَّع إلى دِيارٍ كثيرة.

كان الماء عذبًا مذاقه، إلا أنه كان يُسبِّب لي حِكَّة شديدة في جسمي، خاصة أسفل الساقين، وهذا مِمَّا عانى منه بعض الأساتذة كذلك، وبعد استشارة الطبيب، أكَّد لي أن الماء يحتوي على معادن كثيرة قد تكون السبب في إثارة هذه الحساسية.

تَواصُلنا هاتفيًّا مع الأهل لم يكن ليُتم إلا إذا قطعنا ربع ساعة مشيًا على الأقدام صعودًا في أحد الجبال، وكانت المنطقة الوحيدة التي تغمرها الشبكة الهاتفية، أما شبكة الإنترنت فلم تكن تزورنا حتى في الأحلام.

هكذا كانت ظروف معيشتنا، وهكذا كانت معاناتنا التي لم تكن تُنسينا إيَّاها إلا تلك الاجتماعات من حين لآخر مع أساتذة الدواوير الأخرى، فنخوض في أنواع المواضيع وندردش ونمرح ونجتر الأحداث ونعلِّق عليها، ثم نجتمع على مائدة الطعام الذي حضَّرناه بأيدينا، فنملأ بطوننا بما كان متوفرًا ثم نحمد الله عليه وننصرف إلى مساكننا من جديد.

أمَّا الطقس هناك، فكان مطيرًا شتاءً وشديد البرودة، وما زلت أذكر الليلة التي داهمتنا فيها المياه مُتسرِّبة من النافذة ونازلة من السقف.. حدث ذلك بعد مكوثنا شهرين في هذا المكان، فلقد ظل الغيث ينزل أسبوعًا كاملًا دون انقطاع، فما كان مِنَّا إلا أن أحضرنا مقاعد من الحجرة الدراسية وجعلناها

كأَسِرَّةٍ تقينا المياه التي غمرت الغرفة بأكملها.. وفي نفس الليلة، وبعد أن أطفأنا النور وتمدَّدنا على أسرَّتِنا المُزيَّفة، سمعنا طَرَقات على الباب، تلتها مناداة بِاسْمي ثم باسم زميلي.. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا.. لم يسبق أن حدث هذا من قبل.. نهضنا مذعورَيْن، فتحنا الباب.. صوَّبنا الكاشف الضوئي نحو الطارق فإذا به قد ابتعد عدة أمتار ليقترب من رفيقه، حقّقتُ النظر فإذا بمَحْمَل الأموات موضوعًا على الأرض بينهما، لم يكن عليه أي شيء.. فهمت أنهما قد جلباه على التوِّ من المسجد..

كان وقْعُ الصدمة على نفسينا شديدًا؛ إذ خطر بِبالَيْنا السؤال نفسه حول من يكون ذلك الهالك المقصود حمله، فمكثنا جامدَيْن نترقَّب الجواب دون أن نطرح السؤال، فتقدَّم الطارق وكان شابًّا في العشرين من العمر، ثم قال بعد أن قدَّم التّحية واعتذر من الإزعاج:

- إن الأستاذة كريمة تشكو منذ ساعتين ألمًا فظيعًا في بطنها، وعلينا أخذها إلى المشفى.

- كيف؟ ولِمَ المَحمَل؟

- إنها لا تقوى على الوقوف، سنحملها على الأكتاف وننزل بها إلى سيارة السيد حسن، ومن هنالك ننطلِق.

- هل اتصلتم به؟
- نعم، لكن هاتفه مغلق.
- وما العمل الآن؟
- جئناكما لتذهبا معنا، فلن نستطيع حملها وحدَنا.
- بالتأكيد، هذا واجب علينا.

ارتدينا ملابسنا على جناح السرعة، وخرجنا نتقفَّى خطاهما إلى مسكن الأستاذتين.

كانت المسكينة تتأوَّه من شدة الألم، وتبيَّن لنا بعد أن حدَّدتْ مكان الوَجع، أن مصدره الكليتين؛ لأنه كان في الجزء الخلفي من البطن، تحت القفص الصدري مباشرة، وعلى جانبي العمود الفقري.

حملناها نحن الأربعة على الأكتاف بعد أن زَمَّلناها ببطانية وغطاء بلاستيكي، ثم سرنا نمشي بها وزخات الأمطار تهطل على رؤوسنا.

لم أشهَد من قبل واقعةً حُمِل فيها إنسان على محَمَل الأموات وهو لا يزال على قيد الحياة.

لقد كان من نصيب هذه المسكينة أن تعيش هذه التجربة، إضافة إلى ما كانت تعيشه من وحشة وكآبة لازمتها منذ مجيئها إلى هذا الدّوَّار.

كنا نمشي الهُوينا في الممرَّات الصعبة، ونُسرِع الخُطى حينما تُسعِفنا الممرَّات وتُمهِّد لنا أظهُرَها، ونتوقَّف قليلًا لمَّا يصرعنا التعب، لكن كريمة لم تبرح من أنينها وتأوُّهاتها.

قطعنا الوادي، وصعدنا الجُرْف حتى استوينا على الطريق من الضفة الأخرى حيث تَركُن سيارة السيد حسن، ثم ترقَّبناه بعد أن ذهب الشاب لطلبه.

صعدنا السيارة وأدار السيد حسن المفتاح لتشغيل المُحرِّك، لكن لم تكن هناك أي استجابة، فلقد كانت البطارية مُعطّلة، وليس لدينا حل إلا دفع السيارة من الخلف.. نزلت وزميلي أحمد مع الشابين وشرعنا في دفعها.. كانت الأمطار غزيرة هذه المرَّة.. أحسستُ بالمياه تُداعِب بشرة صدري بعد أن اخترقتْ ثيابي المُبلَّل.. لم تتحرَّك السيارة كثيرًا، إنها ثقيلة.. استغاث حسن برجال من الدوَّار.. انتظرنا وصولهم إلينا.. تفقَّدتُ كريمة في الداخل فإذا بها تتوجَّع وتستغيث.. حاولتُ تهدئتها وتصبيرها.. وصل الرجال وشرعنا ندفع من جديد.. إنها تتحرَّك.. الحمد لله، لقد اشتغل المحرِّك.

انطلقنا نبتغي المشفى الذي يبعد بسبعين كيلومترًا في أقرب مدينة إلى المكان الذي نحن فيه.

اهتزاز السيارة، وشدة البرد داخلها، ضاعف معاناة كريمة وزاد من حدة أنينها.

وصلنا بعد ساعتين ونصف إلى المشفى، مرَّتْ على كريمة كأنها أسبوع كامل.. قصدنا قسم المستعجلات.. وبعد التشخيص تأكَّد ما افترضناه من قبل.. حُقِنَتْ بإبرة لتسكين الألم، فذهب ما بها واسترجعت أنفاسها.. ثم أُخِذَت إلى غرفة كي ترتاح قليلًا ثم يُجرى لها فحص بالأشعة السينية؛ ليُحدِّد الطبيب سبب المرض..

تركناها بالمشفى وعدنا أدراجنا مع السيد حسن كي نستقبل تلاميذنا بالصباح..

بعد ساعات، كان الخبر يصل إلينا، مفاده أن سبب الآلام هو وجود بعض الحَصوات داخل الكليتين، قد تكون تكوَّنت من تراكم المعادن أو بعض النفايات الكيميائية.

أُعْطِيَت كريمة بعض الأدوية لإذابة تلك الحَصوات، وإلا ستكون مُجبَرة على عملية جراحية.

بعد يوم واحد، عادت كريمة إلى الدّوَّار، لكن ليس للعمل، إنما لأخذ أهم ما تملكه من أغراض، ثم أطلعتنا على قرارها الجِريء الذي لم يخطر ببال أحدنا، ألا وهو الاستقالة من العمل.

حاولنا إقناعها بالعدول عن هذا القرار، لكن دون جدوى.

ودَّعتنا، وودَّعتْ تلاميذَها، ثم ودَّعت زميلتها حسناء والعَبرات تنزل على وجنتيها، ودَعَتْ لنا بالصبر والثبات، وقالت: سأوصل معاناتكم إلى كل من له ذرَّة غيرة على رجال ونساء التعليم من المسؤولين، علَّه يتفقَّد حالكم ويُقَدِّر أتعابكم، ثم انصرفتْ.

ظنناها ستعود بعد زيارة عائلتها، لكننا لم نرَها بعد ذلك قط.

# مسحُ الزّنَاد

منذ صِغَرِها وهي تُهدي أفراد عائلتها وأقاربها البهجةَ والأُنس في أثناء مجالستِها ومحادثَتِها.. كان الاستماع إلى كلماتها الرشيقة وضحكاتها الرَّنَّانة يطرد من النفس الوحشة والكآبة، والإصغاء إلى حديثها وهي تسرد حكاياتها بأسلوبها الداعِب الهازِئ يأخذ السامع إلى مواطن الدَّعَة والاسترخاء، فتنشُد أذناهُ سماعَ المزيد من القول والكلام، وتستعذِبُ نفسُه المجلسَ والمقام؛ لذلك أحبَّها القاصي والداني، والصغير والكبير.

وأما جَنانها فلم يُفعَم بالحقد على أحد، ولم تُعلَّق عليه لافتة الشحناء أو البغضاء لأيّ أحدٍ كان، وفضلها بلغ الآفاق حتى اشتُهِرَتْ بالكرم والعطاء.

جمالها الساحر، ساهم في تركيز النظر عليها وأسْهَم في استمالة القلوب إليها.

هكذا نشأت أسماءُ بين أفراد عائلتها، وهكذا عُرِفَت لدى قريناتها وصديقاتها، فكان مِنهُنَّ من يصارِحْنها بما تتميّزُ به من صفات وأخلاق، وكان منهن من يكتُمن ذلك لغرضٍ في نفوسهِنّ.

اجتهدتْ أسماء في دراستها حتى كانت تُتوَّج دائمًا بالمرتبة الأولى بين زملائها وزميلاتها في القسم، فنالت الإجازة في العلوم الإدارية والمالية، ثم عَمِلت مُحاسبة في إحدى الشركات المعمارية، وكانت شركة ضخمة تستخدم عديدًا من الموظفين والعُمَّال. هناك تعرَّفتْ إلى الشاب الوسيم: عادل، وكان مهندسًا معماريًّا، فتقدَّم لِخطبتها وأقاما حفل الخطوبة في حضور الأهالي والأصدقاء، ثم تواعدا على أن يكون الزفاف بعد عام في أثناء العطلة الصيفية.

كانت العلاقة بين عادل وأسماء في غاية الحُسن والاحترام، وكانت كما يرغب فيها أيّ متحابَّين يُخطِّطان لحياة دائمة تنبت في أرضها ذُرِّيَّة طيبة تحمل مِشعل حُبّهما وإخلاصهما.

امتازت أسماء بالجدية في العمل، حيث كانت لا تؤجِّل عمل اليوم إلى الغد، ولا تستنفد أوقاتها فيما لا فائدة فيه، ولم يكن لها صديقات حميمات إلا زميلة واحدة اسمها وردة، لكنها –وبحسب طبيعة عملها بوصفها مراقبة لأعمال البناء– كانت لا تظهر كثيرًا بالشركة بسبب تنقُّلاتها إلى أماكن تنفيذ المشاريع، سواء إلى مدن وطنية، أو إلى بلدان أخرى.

في فترة من الفترات، احتاجت الشركة إلى توظيف عدد من الموظفين الجُدد في مناصب متعددة، فأجرت مباريات ومقابلات لاختيار الأنسب لهذه المناصب، فكان من بينهم فتاة اسمها لُجَين مُختصَّة في مجال التسويق والإعلان.

كان مكتب لُجَين قريبًا من مكتب أسماء، مِمَّا يَسَّر بعد مرور الأيام تعارفهما وانسجامهما.. كانت لُجَين تسكن بعيدًا عن الشركة، وكانت تضطر إلى البقاء في مكتبها في الفترة البينية المُخصَّصة للغداء والاستراحة، والتي تدوم ساعتين، فتتناول غداءها هناك وحيدة، أو بمشاركة بعض زميلاتها اللاتي يُفضِّلن البقاء أحيانًا نفورًا من الازدحام الشديد في الطرقات إبّانَ تلك الفترة.

أما أسماء، فلم تكن تفصلها بين الشركة وبيت والدها إلا عشر دقائق مشيًا على الأقدام.

انتبهت أسماء لمعاناة لُجَين وحزَّ في نفسها أن تتركها وحيدة في تلك الفترة، فعرضتْ عليها أن تصحبها لبيتها في كل يوم فتستأنسان في الطريق، ثم تتغدَّيان كلتاهما في غرفتها، وترتاحان قليلًا، ثم تعودان إلى العمل مساءً.

وافقت لُجَين واستحسنت الفكرة، وشرعتْ تذهب معها كل يوم، فتعرَّفتْ إلى أفراد العائلة حتى أصبحت كفرد منها.

أصبح التوافق والانسجام بين الفتاتين باديًا لكلِّ مَن يعرفهما، والكل غدا لا يشكُّ في متانة الصداقة بينهما، وكيف لا وهُمَا لا يفترقان إلا في الأوقات التي تهتم كل واحدة بواجبات عملها داخل الشركة.

اقترب موعد زفاف أسماء، ولم يبقَ له إلا ثلاثة أشهر، فباشرت التحضير له كما تُحضِّر أي فتاة لعرسها ولحياتها الجديدة في كنف رجل هي من اختارته فارسًا لأحلامها، لكن توقَّفت عن ذلك التحضير ريثما تُكمِل ما عليها من أعمال لخدمة الشركة؛ إذ كان يَلزمها إدخال جميع المعلومات عن أوامر الصرف والفواتير وسندات القبض والتسويات في دفتر اليومية العامة بالحسابات المختلفة، وكان عليها أن تطابق أرصدة ومجاميع الحسابات المختلفة بالأرصدة والمجاميع المُدوَّنة بدفتر اليومية، كما كان عليها أن تُدوِّن تقارير العمليات المُحاسَبِيَّة، وأن تحتفظ بنسخة متكاملة من جميع هذه التقارير بالشكل المطلوب والمُنظَّم، والتي تُعتبَر بديلًا عن السجلات اليدوية، ومهام أخرى.

أُصيبت أسماء بالإرهاق الشديد، ودبَّ في أعضائها دبيب التعب، وأصبحت تعاني من صداع دائم في الرأس، كان كثيرًا ما يفصلها عن وقائع الحياة ومجرياتها، فصارت تطوي الأرض بحثًا عن طبيب محنَّك يُشخِّص لها الداء ويصف لها الدواء، لكنها عبثًا تحاول، فلقد تكالبت عليها الدنيا وسلبت

من الأطباء مهارة التشخيص واختيار الأنسب من الدواء، فتركتها وحيدة تقاوم لهيب الألم المضطرم في رأسها، الذي أفقدها الابتسامة الرشيقة، وألجمها عن الحديث الفاتن الآسِر.

غيابها المتتالي عن العمل جعل الشركة تستغني عنها وتستبدل بها موظفًا آخر، فأصبحت أسماء حبيسة البيت، لا تُرى في الخارج إلا لزيارة طبيب أو لشراء دواء، فعظُم الهمُّ في روعها، واشتدَّ النزال بين المشاعر المتناقضة في خَلدها، فصارت لا تذوق للنوم طعمًا ولا تجد للراحة سبيلًا، فتمكَّنت منها الهموم وشدائد الأسى حتى صرعَتْها، واستولى عليها انشغال البال حتى طحنها طحْنَ الرحى بثُفالِها، فأصبحت ترى آمالها التي كانت تلمع بين ثنايا الدّهر ذاهبةً إلى الذوبان كما تذوب جزيئة ملح في كوب ماء ساخن، وتجسَّم أمامها شبحُ الضياع المُدمِّر، واكفهرَّ في عينيها خيالُ الليل الطويل.

تعاقبت الأيام ولم تزدد معها أسماء إلا سوءًا وتدهورًا، فغدت لا تخالط أحدًا، ولا ترغب في استضافة أي زائر، حتى خطيبها عادل، كانت تشعر بنفسها تنقبض عند رؤيته، وبآلامها تشتد بعد رحيله، فامتنع عن زيارتها تطييبًا لخاطرها.

تطوَّرت معاناة أسماء؛ إذ أصبحت تشعر بآلام حادة في بطنها، أفقدتها الشهية للطعام، فتبدَّلت ملامح وجهها وازداد شحوبًا، وضعُف جسمها يومًا بعد يوم حتى أصبح هيكلًا مخيفًا، ثم صارت حادة الطباع عصبية المزاج وكثيرة الإغماء، وظهرت عليها بعض الأمراض الجلدية، وبدأ شعرها يتساقط شيئًا فشيئًا.

نُصِحَت أسماء بزيارة الرقاة من أجل الكشف إن كانت قد تعرَّضت لسحر، إلا أنها امتنعت بقوة، كونها تستبعد تعرُّضها للسحر، وأنها مقتنعة بأن ما أصابها ما هو إلا نِتاج إرهاق العمل.

لكن ملازمة الآلام لها، وعدم فعالية الأدوية التي وصفها لها الأطبَّاء، وتدهور صحتها يومًا بعد يوم، كل ذلك أجبرها على الخضوع لنصيحة أقربائها ومحبيها، فبدأت مشوارها بحثًا عن راقٍ يكون سببًا في تجاوز محِنتها، فقصدت صحبة والدتها أحد الرقاة القريبين من سكناهم، لكنها عادت من عنده ساخطة.. تحكي لإحدى الزائرات فتقول:

ولجنا البيت وصعدنا الدرج المُفضي إلى فناء واسع، كان ممتلئًا بالكراسي التي احتجزها كثير من المرضى، وكان أغلبهنَّ من النساء. بباب الغرفة التي

يقبع الشيخ المعالج بداخلها، كانت تقف امرأة مُكلَّفة بتنظيم عملية ولوج المصابين إليه، أحسبها زوجته أو إحدى قريباته.

كانت رائحة البخور الصادرة من غرفته تملأ فناء البيت.. جلستُ على كرسي حيث جُعِلتْ نافذةُ غرفةِ المعالج خلفي، وبما أنها كانت مفتوحة، كنت أتمكَّن من حين لآخر سماع المحادثة التي يُجريها هذا المعالج مع الآملين في الشفاء على يديه.

لكني ذُهِلْتُ وأنا أسمعه يُتمتِم بكلمات غير مفهومة، ثم يطلب من جليسه الذي كان يشكو ألم الظهر بذبح ديك أسود وتلطيخ محل الألم بدمه، ودقّ المسامير في الغرفة التي ينام فيها وهو يقرأ بعض التعاويذ التي كتبها له، ثم أمره باستعمال بعض البخور في بيته طيلة سبعة أيام، وطلب منه زيارته بعد انقضاء تلك المدة.

راودني شعور بأن هذا لا يمكن أن يكون من الرقاة ولا يمكن أن يكون إلا دجالًا مشعوذًا، وهممتُ بالخروج لكن والدتي أوقفتني وترجَّتني أن أصبر حتى نسمع ما يقول..

انتظرنا دورنا بشق الأنفس، وكنت من حين لآخر أسمع أشياء غريبة أفقدتني الشعور بالثقة، وأكسبتني مزيدًا من النفور والاشمئزاز.

دخلنا بعد أن طلبتْ مِنَّا المرأة تأدية مبلغ خمسة عشر دولارًا، وهو مبلغ الكشف، ثم أجلستني أمامه، وأشارت على والدتي بالجلوس في مكان بعيد. لقد كان رجلًا كهلًا؛ ذا لحية اختلط فيها السواد والبياض، مُحتبئًا في جلبابه الرث المُرقَّع، تكاد تُغطِّيه القوارير والقراطيس وأقلام الكتابة.

تزامن دخولي إلى غرفته مع صراخ أحد الصبيان الذي كان يرافق والدته، فكان أول شيء يتلفَّظ به هذا المشعوذ الدجَّال أن قال: لقد أخاف قرينُك هذا الطفل البريء، فلا شك أنه مُتمرِّد جبَّار، ولا شك أن علاجك سيكون شاقًّا ويتطلب عدة حصص.

لم أنبس بأي كلمة. ثم بدأ يسألني عن اسمي وعُمُري وعائلتي وكذا عن حياتي كلها.

قصصتُ عليه كل شيء من البداية إلى النهاية، فلم يتردَّد أن قال لي بأني مصابة بسحر التفريق، وطلب مني نحو مائة دولار من أجل شراء مجموعة من العقاقير والأعشاب، سيقوم بخلطها بالمقادير اللازمة ثم يُحضِّرها لي من أجل شربها، ثم ما لبث أن دوَّن على ورقة بعض الكلمات ثم طواها وطلب مني حرقها في مكان خالٍ.

أصرَّ علينا بأن نأتيه بالمال في اليوم الموالي؛ لأنه اليوم المخصَّص له لشراء العقاقير، فطمأنته والدتي، وانصرفنا.

بعد خروجنا، أقسمتُ لوالدتي بأن لا يرى وجهي مرة أخرى، ثم فتحتُ الورقة فإذا بها كلمات ورموز غير مفهومة.. مزَّقتُها ثم رميتُها بأول صندوق للقمامة صادفناه في طريقنا.

بعد أيام عزمنا على زيارة أحد الرقاة، لكن التوصُّل إليه كان يلزمنا أولًا تشخيصًا من أحد معاونيه، ثم تحديد موعد مع الراقي الذي يستغرق شهورًا عديدة، أما مبلغ التشخيص والعلاج فيتطلب ميزانية أسرة لسنة كاملة. شيَّد كل ذلك حاجزًا مَنَّاعًا من زيارته.

تثاقلتُ من جديد للبحث عن معالج آخر، حتى اصطحبني عمِّي وزوجته إلى راقٍ خارج المدينة، فكان حقًّا يعالج بالقرآن، لكن كان جديدًا بالميدان وما زال لم يمتلك خبرة كبيرة، فبعد أن تلا مجموعة من الآيات وهو ينفث فيها على قارورة ماء، رشَّني ببعض مياهه، ثم أمرني بشرب ثلاث حُسُوات منه، وأن أغتسل بالباقي.

جرَّبت ذلك وأحسست بتحسُّن طفيف، لكن سرعان ما رجعتُ لحالتي السابقة.

كاد اليأس أن يتملَّكني وأوشك الهلاك أن يزحف إليَّ، لكن قدرة الله لا تعلوها قدرةُ مخلوق، وأمره لا يكبحه أمرٌ كائن، فألهمني الخالق المقتدِر زيارة أحد المعالجين الذين ذاع صيتهم في إحدى المدن المجاورة، فتحركتْ رجلاي تجذبني إليه جذبًا، وانشرحت نفسي لزيارته كأني معتادة العلاج على يديه، فما إن رأى حالي وقصصت عليه حكايتي، حتى أخبرني أني سُحِرْتُ أكثر من مرة، أوَّلها بسحر التفريق كما أخبرني ذلك المشعوِذ أول الأمر، ثم بسحر مأكول قُدِّم إليَّ في وجبة طعام.

أمرنا أولًا بأن نرجع إليه في صباح اليوم الموالي على بطن فارغة، وذلك ما كان، وبابتسامة لطيفة استقبلنا ودعانا بِصحبة ثلاثة مرضى آخرين إلى الجلوس داخل غرفة العلاج المستطيلة الشكل، والمفروشة بحصير متواضع ووسائد مركونة على الحائط، وعلى الجانب الأيمن منها، توجد مقصورة يضع فيها المعالج لوازمه ومستحضراته.

بعد ذلك مباشرة، اختلى المعالج في مقصورته وبدأ في تحضير المشروب المُحرِّض على التقيُّؤ، ثم أحضر لكل واحد منا إناءً، وقبل أن يمدني بالمشروب، سألته عن محتوياته، فقال بصوت خفيض وبكلمات مقتضبة: نستعمل الحليب والماء الدافئ وبعض الأعشاب كي نحرِّض الذات على الاستفراغ.. سألته عن

ماهية هذه الأعشاب، فابتسم وقال: تلك من أسرار المهنة.. ومن أجل بعث الطمأنينة في نفوسنا أردف قائلًا: أزاول هذه الطريقة قرابة أربعين عامًا بعد وفاة والدي الذي مارسها هو الآخر طيلة حياته.

بمجرد أن وصلت الجزيئات الأولى إلى معدتي، اهتزَّ جوفي كما تهتز الأرض في أثناء زلزالها، وشرعتُ في التقيؤ والاستفراغ.. كان المعالج يترقَّب العملية بكل اهتمام، وأصرَّ على إتمام كل المشروب، فكنت أستغرب لكمية السوائل التي كانت تخرج مني، وبعد التوقُّف عن الاستفراغ صرت أشعر براحة غريبة وبتحسُّن عجيب.

في النهاية طلب مني المعالج العودة إليه في اليوم الموالي؛ من أجل بدء حِصَص الرقية لمعالجة سحر التفريق.

وضعتْ والدتي بعض الدراهم في يديه، فأخذها ووضعها داخل صندوق له دون أن يُمعِنَ النظر إليها.

بِتُّ ليلتي كأنِّي فراشة تُحلِّق في عنان السماء، تداعبها النسائم من كل جهة، وشرعت أحمد الله أن يسَّرَ لي السبيل إلى العلاج على يد هذا الشيخ.

في التاسعة صباحًا من اليوم الموالي، وضع الشيخ في الماء سبع ورقات من السدر بعد أن دقَّها جيدًا، ثمّ قرأ عليها بعض الآيات وطلب مني أن أشرب

منه ما تيسَّر وأغتسل بالباقي، ثم أوصاني أن أُحَصِّن نفسي بالاستعاذة بالله من الشيطان وأتباعه، والتوكُّل على الله، والتوبة الصادقة إليه، والإكثار من الأعمال الصالحة الدافعة للبلاء، مثل: الصدقة والإحسان إلى الناس، وإشغال الفكر به سبحانه، وحصر التوحيد له، واليقين بأنّه المالك لكل شيءٍ والقادر عليه، والعليم بأحوال العبد، ثم الإكثار من قراءة القرآن والحرص على ترديد الأدعية المأثورة، والالتزام بما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية من الأوامر والطاعات وتجنُّب الوقوع في المنهيات.

خرجنا من عنده نريد الفندق، لكن استوقفنا صوت يناديني باسمي.. كاد قلبي ينفجر دهشة وذعرًا، فكيف لإنسان أن يعرف اسمي في هذه المدينة الغريبة.

التفتنا ناحية الصوت، فإذا بها السيدة وردة، مراقبة أعمال البناء في الشركة، كانت تلوِّح بيديها وهي تنتظر خُلُوَّ الطريق من السيارات لتقطع إلينا.

كان الزمن قد طال بيننا.. لم أرها منذ أن كنت أعمل بالشركة.. عانقتني بشدة حتى أحسستُ بحرارةِ شَفقتِها وتحنُّنها يسري بين أضلعي، ثم سألتني عن سبب وجودي بهذا المكان.. ذكرتُ لها السبب باقتضاب لأنها كانت على عجلة من أمرها، فرأيت على ملامحها علامات الحزن والأسى، وأخبرتني أنها

كانت على علم بمرضي، لكن لم يخطر ببالها أن يكون السبب سِحرًا.. علمتُ دون أن أستفسِر منها أنها في مهمة عمل كعادتها، ومن عجائب الصُّدف أننا كنا ننزل في نفس الفندق دون أن نتمكَّن من رؤية بعضنا بعضًا.. رنَّ هاتفها فتهيَّأتْ للانصراف وضربتْ لنا موعدًا في المساء لاستكمال الحديث.

تحت سقف الظلام كُنَّا نجلس رِفقة وردة على شرفة الفندق من الطابق الرابع، حيث نطلُّ على شوارع المدينة المزيَّنة بأنوارها البرَّاقة وبناياتها الشاهقة. وعلى مائدة مستديرة تنبعث من ظهرها رائحة الشاي المنعش، دار حديث لم أتوقع يومًا أنه سيحمل معلومات جديدة تخصني وتخص حياتي.

سألتني أولًا إن كنتُ قد طلبتُ فعلًا من صديقتي لُجَين في أحد الأيام، أن تأخذ نسخة لصورة تجمعني بخطيبي عادل إبّان حفل الخطوبة وتحفظها بصيغة رقمية.. أجبتها بالنفي وأنا مشدوهة مصدومة، وسألتها توضيح القصة، فقالت:

لقد التقيتُها يومًا صُدفة في أحد الشوارع كما التقيتُك اليوم، وبينما نحن نتحدَّث رنَّ هاتفها في حقيبتها، فأدخلَت يدها لتُخرِجَه، ولَّما كانت الصورة في تماس مع الهاتف، أمسكتهما معًا وأخرجتهما دون أن تشعر..

لم تستطع إخفاء الصورة لأنها كانت مكشوفة، ولَمَّا سألتُها عنها أخبرتني أنكِ ترغبين في حفظ الصورة رقميًّا، ولأنها تتوفَّر على الماسح الضوئي للصور في مكتبها اقترحتْ عليك أن تنفِّذ لك هذه المهمة.. لم يكن عندي حينها أي سبب في عدم تصديقها. بعد أيام قليلة، التقيت معها وجهًا لوجه وهي تخرج من إحدى العمارات المشبوهة؛ حيث كانت مأوًى لأحد المشعوذين الدجَّالين، وقبل أن أطرح السؤال عليها، أخبرتني أنها كانت في زيارة قريبة لها تقطن بإحدى شُقَق هذه العمارة.. صدَّقتها ولم أشُكّ في سوء نيتها لأني لم أجد دافعًا لذلك.

لكنني منذ الصباح، ومنذ علمي بقضية السحر، وأنا مشغولة البال، حيث ساقت إليَّ ذاكرتي يوم رأيت صورتك بحقيبتها، ويوم رأيتها تخرج من عمارة المشعوِذ، فحاولت ربط الأحداث، وفهمتُ كلَّ شيء.

لم أستوعب أن تكون لُجَين هي صاحبة الفِعلة، وأنها تجسر على استخدام السحر عن طريق صورتي، وهي الصديقة التي أتخمتُها خيرًا وحَشوتها فضْلًا!! ولَمَّا أحسَّتْ وردة بعدم اقتناعي، تناولتْ هاتفها وربطت اتصالًا بلُجَين، ووضعته على وضع مُكبِّر الصوت.. وبعد مُقدِّمات الحديث، سألتها وردة إن كانت تتذكَّر يوم أن رأت عندها صورتي، فأجابت لُجَين بالإثبات، ثم طلبتْ

منها إن كانت تتذكَّر سبب حمل الصورة، توقَّفَتْ لُجَين قليلًا عَنِ الكلام ثم أجابت بصوت مرتعد وذكَرَتْ نفس السبب السابق.. بيَّنَتْ لها وردة أنها كاذبة في ادِّعائها، ولَّما أبانت الجِدال، أخبرَتْها أني بصحبتها وأمرَتها أن تواجهني مباشرة، لكنها سرعان ما أقفلت الخط وأغلقت هاتفها.

كابَحْتُ العوم في بحار دموعي تلك الليلة جرَّاء سُهوم الخيانة والغدر، وعانيتُ ضربات التأنيب والندم على سذاجتي وعمق غفلتي.. آه، لقد كنتُ لها أختًا حنونة، وكانت لي بندقيةً قاتلةً!! أردتُ نفض الغبار عن زِناد بندقيَّتها فأطلقت عليَّ رصاصات مكايدها، آه يا أرض كم تتحمَّلين مَن تحمِلين!!

بعد رجوعي إلى البيت في مدينتي، هُرِعْتُ إلى تَفقُّد ألبوم صوري، فإذا بالصورة حقًّا مفقودة، ولَّما ربطتُ الاتصال مُجدّدًا بلُجَين، كانت ترفض الرّدَّ في كل مرة.

أسبوع مضى ويبزغ فجر الحقيقة، وتُطمَس صفحات الشكوك والظنون.. كانت زيارة وردة لأسماء هذه المرة تحمل اعترافات لُجَين وإقراراتها، وأن كيدَها كان دافعه الحسد والإعجاب بالمهندس عادل ومحاولة الظفر به، وأنها نادمة وترغب في تقديم الاعتذار، إلا أن الأمور آلت إلى غير ما كانت تتوقعه لُجَين؛ إذ أصبحت فاقدة للعمل ورهينة للمحاكم.

أما أسماء، فكان تماثُلها للشفاء واضحًا؛ إذ تحسَّن حالها، فأصبح جسمُها مرآة للسلامة نِبراسًا للمعافاة، ونفسُها طليقةً من عِقال الهموم غريقةً في كمال الهدوء، ورجعت حبال المودة مع خطيبها كما كانت عليه، وقد تسلَّمت وعودًا بالعودة إلى عملها في القريب العاجل.

# مآل التّمرُّد

لم يكن الباعثُ لإنشاء قناة على اليوتيوب هو الربح المادي، بل كان الدافع هو حب التصوير وتقديم محتوًى يخدم المتابعين ويفيد المشاهدين، وبما أنني أعشق الأسفار، قررتُ تخصيص القناة في هذا المجال، وبعد التقصِّي والبحث عن موضوع يقل الخوض فيه، اهتديتُ إلى ما يعيشه أصحاب الهجرة السّرِّيّة في البلدان الأوربية، حتى أنقل معاناتهم إلى كل من يُفكِّر في السير على خطاهم، أو تنفيذ مخططاتهم.

كان عملي الخاص ببلجيكا يسمح لي بالتنقُّل من حين لآخر بين دول أوروبا وتوثيق ما عاناه المهاجرون السِّرِّيُّون وما زالوا يعانونه، لكن القصة التي بقيت راسخة في ذهني هي قصة عبد الوهاب، الذي وجدته مقيمًا تحت قنطرة من قناطر باريس. وبين عشرات الخيمات، كان يتخذ خيمة صغيرة سريعة التنصيب مسكنًا له.

في شهر فبراير، وفي ذروة البرودة، وفي الصباح الباكر، كان عبد الوهاب قرب الخيمة يُمسك بيده اليمنى قنينة ماء ويصبه على كفه اليسرى ثم يُمرِّره على وجهه. لقد كان نحيفًا طويلًا، ذا شعر طويل ولحية كثيفة غير مُرتَّبة، أبيض

اللون، أسود الشعر، يكسو وجهه الحُزن والأسى.. اقتربتُ منه ثم حيَّيته بتحية الإسلام، فردها عليَّ.. علِمتُ من لكنته أنه مغربي وأنه من منطقة شمال المغرب.. استأذنته في الحوار والتصوير، فقَبِل دون قيد أو شرط، وبعد أن انزوينا عن الخيمات المنتصبة بجواره، وسويَّنا جلستنا، بدأ حواري معه كالتالي:

- هل ممكن أن تُعرِّفنا بنفسك؟

- بالطبع، اسمي عبد الوهاب، عمري خمسة وأربعون عامًا، أب لثلاثة أبناء، طفل وطفلتين، تركتهم بالمغرب، وأعيش بأوروبا دون أوراق الإقامة منذ خمس سنوات.

- احكِ لنا عن سبب هجرتك من المغرب.

- لا شك أن السبب هو الفقر والحاجة، فلقد كنتُ مسؤولًا عن زوجة وثلاثة أطفال، ووالدة مريضة.. كنت أعمل خيَّاطًا بمحل أكتريه، أعمل ليل نهار وأكافح من أجل توفير الأدوية للوالدة وتسديد مبلغ الكراء والقوت وتدريس الأبناء. لكن غلبتني المصاريف وعجزتُ عن تغطيتها. تُوفِّيَت الوالدة، وهدَّدني صاحب المحل بالإفراغ، فلم أجد حلًّا إلا أن أهاجر إلى أوروبا من أجل توفير الحياة الكريمة لزوجتي وأبنائي.

- متى تمَّت الرحلة وكيف؟

- كانت بداية الرحلة قبل خمس سنوات، خرجنا من المغرب إلى تركيا ثم إلى بلغاريا وسربيا وهنغاريا والنمسا، وأخيرًا دخلتُ ألمانيا ثم بعدها فرنسا.

- لا شك أنك عانيت الكثير في رحلتك؟

حرَّك رأسه يمينًا وشمالًا ثم تنهَّدَ وقال:

- بالتأكيد، لقد عِشْتُ أحداثًا لا يتخيَّلها حتى مخرجو أفلام هوليود.

- أخبرنا عن رحلتك بالتفصيل، حتى يطَّلع عليها مَنْ يُفكِّر في مثل هذه الهجرة.

- في مجموعة خاصة على الفيسبوك، وبشهر ديسمبر، اتفقنا نحن ثمانية أشخاص من مُدُن مختلفة على أن تكون انطلاقتنا من المغرب في يوم واحد وعلى مَتن نفس الطائرة.. التقينا بمطار محمد الخامس بمدينة الدار البيضاء، ثم انطلقنا إلى مدينة إسطنبول بتركيا، وكان في انتظارنا أحد الأشخاص السوريين حيث سيأخذنا إلى بيت يُؤَجِّرُه، وفيه يتجمَّع الشباب الراغبون في الهجرة، لكنه غير مسؤول عن عملية الهجرة إلى خارج تركيا، بل يلزمنا البحث عن مُهرِّب ومرشد، والمهرِّب يُعرَف باسم "خطّاف" يحملنا إلى النقطة القريبة من الحدود التركية البلغارية، أمّا المرشد فيكون دليلنا في كل مسار الرحلة. الخطَّاف هو شخص ينقل المهاجرين السِّرِّيين دون رخصة نقل المسافرين، أي بطريقة غير قانونية، عبر شاحنة أو سيارة كبيرة.

وصلنا إلى البيت فإذا به مُمتلئًا عن آخره، أكثر من ثلاثين شخصًا بالداخل، منهم التونسيون والجزائريون والسوريون والعراقيون وجنسيات أخرى، وظل هذا العدد يتزايد إلى اليوم الذي قرَّرنا فيه الخروج.

كان أول شيء قمنا به هو شراء بطاقة هاتفية عالمية، حتى نتمكَّن من استعمالها في كل مكان من سفرنا.. بحثنا عبر شبكات التواصل الاجتماعي عن مُهرِّب (خطَّاف) ورفيقه المرشد ليعبر بنا الحدود البلغارية وصولًا إلى العاصمة صوفيا، وطلب منا مقابل هذا ألف وخمسمائة دولار للفرد الواحد.

اقتربت ساعة الفصل، فهيَّأنا أمتعتنا من أطعمة مُصبّرة، وأغطية خفيفة، وملابس مضادة للأمطار، غير عاكسة للضوء، وكيس بلاستيكي للنوم، وأجهزة شحن الهواتف، ثم تركنا بطاقاتنا التعريفية وجوازات سفرنا إلى صاحب البيت، على أن يرسلها إلينا عندما نصل إلى أوروبا.

على الساعة الثانية صباحًا، كانت تقف السيارة التي ستحملنا في المكان المظلم الذي اتفقنا عليه.. كانت مُخصَّصة لنقل السِّلَع، ولوحتها الرقمية مغطاة بقماش أسود حتى لا يتمكَّن منها الشرطة، وليس بها إلا النافذتان في الأمام، وكان بها شخصان، السائق والمرافق، فهِمنا على التوِّ أن المرافق سيكون هو مرشدنا في الخلاء، وهو من سيعبر بنا الحدود.

نزل هذا المرشد وفتح الأبواب على وجه السرعة، ثم أمرنا بالصعود.

شرعنا نتدافع من أجل التسابق إلى الكراسي.. كان عددنا يفوق العشرين.. تكدَّسنا جنبًا إلى جنب كأننا قِطَع سردين في علبة من الحديد.

انطلقت السيارة بسرعة مجنونة.. كان يلزمها قطع مسافة أربعمائة كيلومتر تقريبًا.. بعد نصف ساعة شعرنا بالاختناق داخلها.. أصاب أحد أصدقائي دوَّار وغثيان، فطلبنا من السائق أن يتوقَّف قليلًا حتى نتنفَّس شيئًا من الهواء.. لم يتردَّد في الوقوف.

توقَّف في مكان خالٍ مظلم، وطلب منا النزول هنيهة من الزمن، ثم فتح غطاء المُحرِّك وأعاد غلقه، وأخبرنا بأن المُحرِّك ساخن جدًّا، ويلزمه إحضار قنينةِ تبريدٍ خاصة من مستودَع داخل الخلاء. تعجَّبنا مِن أين سيأتي بها في هذا المكان!

ركبا هما الاثنان وطلبا مِنَّا الانتظار خمس دقائق، ثم انطلقا في طريق غير مُعبَّدة وسط الأشجار حتى اختفيا عن الأنظار، أمَّا المُدَّة، فقد تمدَّدت إلى ما لا نهاية. بقينا ننتظر ساعات والبرد ينهش عظامنا البريئة. أخيرًا فهمنا أنهما نصبا علينا وأخذا أموالنا وأمتعتنا.

كنت من بين القلائل الذين احتفظوا بهواتفهم معهم، أما الآخرون فذهب كل ما يملكون في رمشة عين، وكان من بينهم شاب وسيم من نفس المجموعة التي جاءت من المغرب اسمه طارق.

اتصلنا ببعض أصدقائنا الذين كانوا معنا بالبيت، فأرسلوا إلينا خطّافًا آخر ليُرجِعَنا إلى المدينة.

رجعنا والأسى يكتسح نفوسنا.. رجعتُ لا أملك شيئًا عدا الهاتف والملابس التي ألبسها.

بعد يومين فقط، وفي الظهيرة كان أحد المُهرِّبين المعروفين بنزاهتهم يُعلِن على مجموعة الفيسبوك أن الفرصة جد مواتية للهجرة، وعلى الراغبين فيها تأكيد انخراطهم في أجل أقصاه ثلاث ساعات؛ لأن الرحلة ستكون في منتصف الليل، وكان بنفس المبلغ السابق.

كان ينقص طارق خمسمائة دولار حتى يتمكَّن من الهجرة معنا، وبما أنه أصبح لا يملك هاتفًا، طلب مني هاتفي من أجل إجراء مكالمة لعمته التي تسكن بألمانيا؛ من أجل أن ترسل إليه هذا القدر من المال.. تواصل معها وأبلغها مقصده، لكنها أخبرته أنها لا تستطيع كونها في مزرعة خارج المدينة ولن ترجع إلا بعد يومين.

بعد أن أنهى معها الاتصال، شكرني، وقال: يؤسفني ألا أرافقكم، سأنتظر إن كانت هناك رحلة أخرى بعد يومين أو ثلاث.

لكن بمجرد أن أتمَّ جملته، رنَّ الهاتف من جديد.. لقد كانت هي.. سلَّمتُ له الهاتف دون أن أردَّ عليها، تحدَّثا قليلًا ثم ناولني الهاتف، وقال: إنها تريد الحديث معك.

تُرى ماذا تريد قوله لي؟ هذا ما قلته في نفسي..

طلبتْ مني إن كان بالإمكان أن أقرضه ذلك المبلغ وستتكلَّف بإرساله إليَّ فور عودتها إلى المدينة، وطلبتْ مني إمدادها باسمي كاملًا على الواتساب.

انتابني شعور بأنها صادقة فيما تقول، فخجلتُ منها وأجبتها بالموافقة، ثم طلبتُ منها ألا ترسل المبلغ حتى أطلب منها ذلك؛ لأنني كنت أرغب فيه عند دخولنا إلى بلغاريا، فشكرتني كثيرًا ودعت لنا بالتوفيق والتيسير.

انخرطنا في المجموعة التي أعلنت استعدادها للخروج في تلك الليلة، وبدأنا نجمع أمتعتنا من جديد.

في منتصف الليل، انطلقت السيارة كأنها البرق يومض في السماء، وكُنَّا على متنها خمسة عشر مهاجرًا، إضافة إلى مرشدَيْن اثنين؛ لأننا سننقسم إلى مجموعتين عندما نقترب إلى الحدود وننزل مشيًا على الأقدام، وكل مجموعة سيقودها مرشد.

بالطريق، كانت شبكة الإنترنت تعمل بشكل ممتاز، فكنت أراسل زوجتي بالمغرب لأوافيها بكل تحرُّكاتي، كما كانت من حين لآخر تصلني رسائل من عمَّة طارق تستفسر عن أحوالنا وأخبارنا، فكنت أخبرها بكل شيء.

بعد ثلاث ساعات ونصف أو يزيد قليلًا، نزلت مجموعتنا التي جاءت من المغرب وكُنَّا ثمانية أفراد، إضافة إلى المرشد، نزلنا في نقطة تبعد عن الحدود بسبعة أو ثمانية كيلومترات، أما المجموعة الثانية فواصلت مسيرها إلى نقطة أخرى.

كان الظلام دامسًا، والبرد قارسًا، ومطلوب منَّا أن نلتزم الصمت واتباع خطوات المرشد دون الزيغ عنها.

الطريق وعْرَة جدًّا، والممر ضيِّق كذلك. كان المرشد في الأمام يُسرِع الخُطى، أما نحن فكُنَّا من حين لآخر نتباطؤ لقلة خبرتنا، فكان يتوقَّف ويصيح في وجوهنا. كنتُ أرمي بقَدميَّ على الأرض كما يرمي المُزارِع حبات قمح في أرضه المحروثة. أشواك ونباتات تحُفُّنا من كل جهة، تُحَيينا بابتسامتها الرقيقة تارة، وتخدشنا بأظفارها الحادة تارة أخرى. كان الممَرُّ يُكْرِمنا حينًا فيُفرِشُ لنا الثرى المُنَدّى، ويقسو علينا حينًا آخر فيُبرز لنا عظامه الصلدة.. والبرد أبى إلا أن يكون مُشاكِسًا ينفذُ بسيوفه إلى العظام المُنهَكة، ويستعذب السكن فيها

فيتقوقع وينكمش.. أصواتُ الذئاب تُرعِبنا لمَّا تعوي عاليًا، ودويّ الخنازير يفزعنا عندما تتسلَّل مِن بين الأشجار هاربة.

مشينا حاملين على ظهورنا أكياسًا ثقيلة، ضاعفت معاناتنا ومُقاساتنا. مشينا ومشينا حتى بلَّل العرقُ أجسادنا ونال التعب منا.. كُنَّا نُهرول طَورًا، ونتوقَّف طَورًا، ونتمدَّد على بطوننا حابسين النفَس لمَّا نُعاين أنوارًا تزحف في الممرَّات غير المُعبَّدة الضاربة وسط الغابة، خوفًا أن تكون لسيارة شرطة؛ إذ كانت الدوريات لا تتوقَّف عن الحركة بحثًا عن مهاجرين سِرِّيين.

كنا نستغل فترات التوقُّف في شُرب الماء، وتَناوُل القليل من الأطعمة، وتَفقُّد الرسائل التي تصل إلينا من الأقارب الراغبين في معرفة أخبارنا. كانت الرسائل التي تصلني من خولة –وهو اسم عمة طارق كما سأعرف فيما بعد– تفوق ما يصلني من زوجتي أو من أقاربي؛ فلقد كانت شديدة الاهتمام بأخبارنا، لدرجة أنها كانت على الخط في كل لحظة أُشَغِّل فيها الهاتف.

بدأنا نشعر بملل الطريق، وكلما قطعنا مسافة كبيرة، نسأل المرشد كم بقي لنا كي نصل إلى الحدود، فيُخرِج هاتفه ويفتح تطبيق خرائط جوجل فيجيبنا، وبه يعرف النقطة المُحدَّدة التي سنعبر منها الحدود، وهي القطعة المُهشَّمة مِنَ السياج الفاصل بين البلدين.

بعد جَهد جهيد، اقتربنا من السياج ولم يعد يفصل بيننا إلا مائتي متر. كانت فرحتنا تضاهي فرحة من عَبَره ونجا من قبضةِ دَوْرِيَّةِ الشرطة.

انتظرنا نحو ساعتين ريثما يبزغ ضوء النهار فتنكشف المسالك بعد السياج؛ لأنها أكثر وعورة وأشد قساوة.

وجاءت اللحظة الحاسمة، لحظة العبور والانتصار على حُرَّاس الحدود.

تقدَّمنا بصمت وبِخُطًى سريعة والمرشد يقودنا، ثم وصلنا إلى الطريق الفاصل بين الغابة التي أتينا منها والسياج، وكان الطريق مرتفعًا قليلًا.

انبطحنا على منحدر الطريق نترقَّب اللحظة المناسبة، ثم بإشارة واحدة من المرشد انطلقنا وراءه لنقطة العبور، لكن، هيهات هيهات أن تكون معاناتنا قد وصلت إلى نقطة نهايتها، لقد كانت صدمتنا كبيرة لَمَّا وجدنا ذلك المنفذ من السياج قد أُعيد تشكيله وإصلاحه.

طُلِب منَّا الرجوع إلى الغابة بسرعة، فرجعنا نجرُّ الخيبة والإخفاق. شعرنا بحزن عميق جدًّا.. سألْنا المرشد كيف غاب عنه إحضار كَمّاشةٍ لقص السلك، إلا أنه أخبرنا أن السجن جزاؤنا في حالة ما أُمسِك بنا وبحوزتنا كَمّاشة.

حصل المرشد على نقطة أخرى للعبور بواسطة خرائط جوجل بعد أن اتصل بأصدقائه، لكنها كانت على بُعد ثلاثة كيلومترات.

كان التعب قد نال مِنَّا حتى أوشكنا على الاستسلام، لكننا تصبَّرنا واستأنفنا المشي كارهين.

بعد ساعتين كُنَّا قرب تلك النقطة، كرَّرنا طريقة العبور السابقة، والحمد لله تمكنَّا من الإفلات والعبور إلى أرض بلغاريا.

غَمرنا الفرَحُ حتى أنسانا كل أتعابنا، فرجع فينا النشاط كأننا في بداية رحلتنا.

كانت المسالك أكثر وعورة، انحدارات شديدة ومنزلقات صعبة.. كان الجو أقل برودة من أراضي تركيا.. أحسست أني غارق في العرق، فصرت أتخلَّص من بعض الأثقال، كوشاح العنق والجوارب وبعض المأكولات.

تعمَّقنا كثيرًا في وسط الغابة قاصدين نقطة تبعد بعشرين كيلومترًا، حيث سنلتقي مع أحد المُهرِّبين لينقلنا إلى العاصمة صوفيا.

ونحن جالسون تحت كومة من الأشجار نأخذ قِسطًا من الراحة، باغتتنا أصواتٌ من الخلف تنادينا وتطلب مِنَّا التوقُّف عن الحركة.. لقد خرجت الشرطة من بين الأشجار كما تخرج الفئران من جحورها لمَّا تُحَفِّزُها رائحة الطعام.

همنا بالفرار لكن أشار علينا المرشد بأن نبقى مكاننا وإلا أطلقوا علينا النار. كانوا أربعة، أحدهم يجرُّ كلبًا. طلبوا مِنَّا وضْع حقائبنا على الأرض ووضْع أيدينا على رؤوسنا. اقتربوا مِنَّا وهم مُصوِّبون أسلحتهم نحونا. خصَّني الكلبُ بالشمِّ والنُّباح. لم أفهم حينها لماذا.

طلبوا مِنَّا –كما وضَّح لنا المرشد– أن نُخرِجَ ما عندنا من أموال وهواتف وكل شيء.. وضعنا كل ما كنا نُخبِّئه في ملابسنا على الأرض، ثم أمرونا أن نستلقي على بطوننا وأيدينا على رؤوسنا، وشرعوا في تفتيشنا من الرأس إلى باطن القدم.

كان الفتى هشام يُجَيِّئ هاتفه في جوربه حتى لا يأخذوه منه، لكن الشرطي بسهولة اكتشفه وهو يصرخ بغضب، لم نفهم ما قاله بِلُغَته البلغارية، لكن المعنى كان واضحًا، ثم نزع غُصنًا من شجرة وشرع يضرب هِشامًا بكل قوة ووحشية.. كان صوت الضرب على الظهر والفخذين والساقين يُسمَع بشدة.. آلمني هذا الاعتداء وحرَّك مشاعر العطف والحنان في داخلي، فصرتُ أُحدِّقُ في وجه الشرطي كأني أُحدَّثه بعينيَّ وأطلب منه الانتهاء من عدوانه.. لكن لم أشعر حتى هوتْ على رأسي ضربة كادت تُفقِدُني وعيي، لم أفهم السبب، فرفعت رأسي أتتبَّع مصدر الضربة، فإذا بضربة أخرى تهوي على جبهتي جعلت الدَّمَ يفور ويغور في تلك الأرض المشؤومة. لقد كانت من شرطيٍّ آخر،

ضربني بعصاه وهو يصرخ بأعلى صوته. بعدها سمعت المرشد الذي كان منبطحًا بجانبي يقول لي: إنه يقول لك اخفض عينيك ولا تنظر إليه.

بقينا منبطحين قرابة عشر دقائق بين أرجلهم وهم يتحاورون بينهم.. كان أنين هشام يُقطِّع قلبي، حينها تجلَّت بين مُخيلتي والدتي الراحلة، وخِلتها تلومني على هجرتي، فلقد كانت تنصحني بالبقاء جانب أبنائي والاعتناء بهم، ثم تراءى لي أبنائي بابتسامتهم البريئة، وشعرت كأنهم يُودِّعونني إلى الأبد، وتجلَّت الأسئلة في شاشة ذهني: هل تستأهل أوروبا كل هذه المكابدة والمعاناة؟ وهل يُعَد ضَنْكي ببلادي سببًا حقيقيًّا لتحمُّل كل هذا الذل والهوان؟

بصرخة واحدة كنا قِيامًا بينهم.. طلبوا منَّا حمل حقائبنا ثم مرافقتهم. كان أحدهم أمامنا وثلاثة من ورائنا. صرنا نمشي خائبين، لقد ضاع كل شيء. الكل يتساءل أين سيأخذوننا؟ كيف سيكون مصيرنا؟ الكل يناجي الله ويسأله الفرج.

ونحن راجعون، مررنا بالأماكن التي رَمَيْتُ فيها أغراضي، فلم أجد شيئًا.. فَهِمتُ أنها كانت السبب في تعقُّب آثارنا، وفهمتُ لِمَ خصَّني الكلب بالشمِّ من بين رُفقائي.

انعرجوا بنا إلى ممر آخر حيثُ توجد السيّارة التي أتوا بها. أشاروا علينا بالركوب، ثم انطلقوا بنا ونحن لا ندري إلى أين.

بعد بضع دقائق، وقُبيل أن تتموضع الشمس في كبد السماء، وجدنا أنفسنا أمام الحدود. أنزلونا بعد أن طلبوا منَّا ترك حقائبنا داخل السيارة، ثم فتحوا ممرًّا في السياج، وأشاروا إلينا بالانصراف موازاة بالضرب على ظهورنا.

رجعنا على أرض تركيا فقراء خائبين لا نملك إلا ما نحمله على جلودنا من لباس.

قرَّرنا الرجوع إلى إسطنبول وتأجيل العبور، لكننا لا نملك هواتف حتى نسترشد بها.. بقينا نمشي كَمَن يمشي تائهًا في الظلام وقد قضى علينا التعب والإنهاك.

فجأة نسمع احتكاك عجلات شاحنة بأحد الممرَّات بعد أن قرر سائقها التوقُّف، كان الغبار يُغطِّي محيطَها حتى أخفاها. بقينا واقفين نحملق فيها، فإذا بنفر من العسكر ينزل منها مسرعين في اتجاهنا ثم أخذوا يهتفون بالتوقُّف.. دون تفكير أطلقنا الريح لسيقاننا.. سمعنا طلقات رصاص ونباح كلاب.. كُنَّا نجري بين الأشجار والأشواك والحجارة كأننا غزلان يطاردها لبؤات، وفي لحظة من اللحظات التَوَتْ رجلي فانخلع نَعْلي الأيمن، فواصلتُ الجري بنعْلٍ واحدة حتى نالت مني الأشواك والأعواد، وكاد قلبي يتوقَّف خفَقانًا وترددًا..

فلمَّا شعرنا بالأمان توقَّفنا، لكننا صرنا أربعة فقط، فلقد افترق عنا الآخرون، بمن فيهم طارق وهشام.

بدأت رجلي الملتوية في الانتفاخ وصرت أشعر بالألم، خلعت قميصي الداخلي وقطعته نصفين، نصف ربطت به كاحلي، ونصف لففتُه على كل قدمي حتى أتمكَّن من المشي عليها. بعد أخذ قسط من الراحة، شرعنا نبحث عنهم بحِذَر شديد.

بعد ساعتين من البحث، كانت نسبة أملنا في العثور عليهم قد انعدمت كُليًّا. سَغِبْنا فطفقنا نأكل ثمار البلوط الصغيرة التي لم تنضج بعد، وشُقَّتْ شفاهنا جفافًا وعطشًا فشربنا ما وجدناه محفوظًا في بعض البِرَك المُلوَّثة.

ونحن نمشي بغير هدًى، لمحنا شيخًا كبيرًا يجمع الحطب في رُزم، فاختلفنا هل نقصده ليدلنا على طريق نسلكه أم نتوارى عنه مخافة أن يُبلِّغ عنا، فاهتدينا إلى الرأي الأول.

اقتربنا منه فحيَّاه المرشد باللغة التركية، فردَّ عليه وهو يبتسم، ثم سألنا عن جنسيتنا، فأجبناه وأخبرَنا أنه مسلم كذلك ويعرف قليلًا من اللغة العربية.. شعرنا بالارتياح تجاهه، وطلبنا منه شربة ماء فقدمها لنا، ثم أهرق عليَّ القليل منه لأزيل الدم من جبهتي، ومنحنا قليلًا من الحلوى كانت عنده.. كانت لغته العربية ضعيفة، لكنه كان يفهم جيدًا ما نقوله.. أخبرناه بقصتنا، فتأسَّف لحالنا، وقال بأنه متفهِّم لمعاناتنا، وأنه كثيرًا ما قدم المساعدة لمهاجرين مثلنا، ثم دعانا أن نبقى معه الليلة حتى نسترجع قوانا ونرتاح قليلًا. لم نتردَّد في القبول..

أخبرنا بأن سيارته مركونة في طريق غير مُعبَّد على بُعد مائة متر.. جمع أمتعته، ثم أشار إلينا بمرافقته.

صرنا ننظر بعضنا إلى بعض.. ظنناه كمينًا نُصِب لنا، لكن لم يكن عندنا ما نخسر أكثر مِمَّا خسرناه.

صعدنا الشاحنة وانطلقنا نضرب الأرض إلى المجهول.. في الطريق أخبرناه أننا فقدنا خمسة من الأصدقاء، وقصصنا عليه قصتنا.. تأسَّف لنا وطمأننا بأنه سيرسل أبناءه للبحث عنهم بمجرد وصولنا إلى مزرعته.

كانت المزرعة شاسعة، يتوسَّطها بيت كبير محفوف بالأشجار.. استقبلنا أبناؤه الثلاثة بحفاوة وابتسامة عريضة.. ثم دلونا على الحمَّام من أجل الاستحمام بعدما قدموا لنا ما نحتاج إليه من ثياب، ثم انصرفوا بشاحنتهم بحثًا عن أصدقائنا.

استمتعنا بالاستحمام وشعرنا براحة كبيرة. أتاني بقليل من الثلج وأمرني أن أُمَرره على كاحلي ومفصل قدمي، ففعلت، ثم شدَّه بضماد.. بعد ذلك قدَّم لنا الطعام وكان أرُزًّا مع لحم الدجاج وسَلَطة.. أكلنا كأننا لم نأكل قط، ثم أحضر لنا هاتفًا موصولًا بالإنترنت فاتصلتُ بزوجتي بعد أن سحبتُ رقمها من إيميل جوجل وأعطيتها جديد أخبارنا، ثم فعلتُ نفس الشيء مع عمة

طارق.. أبدت تأسُّفَها وتألُّمها، ثم منحتُها أرقام الأصدقاء الذين ما زالوا في رفقته، أما المرشد فلقد أجرى اتصالًا مع المهرِّب وأخبره بالذي حصل.

بعد أذان المغرب، كان أبناء الشيخ يعودون وحدهم. أخبرونا أنهم مسحوا الأرض على طول السياج دون العثور عليهم.

بعد العشاء مباشرة أخلدنا إلى النوم، بعد أن اتفقنا مع أحد أبناء الشيخ أن يُوصِّلنا في الصباح إلى الطريق المُعبَّد كي نعود أدراجنا إلى إسطنبول.

لكن مشيئة الله أرادت غير ذلك، ففي الصباح كانت الأمطار تهطل بغزارة، جعلتنا نُحبَس في بيت الشيخ ثلاثة أيام.

في هذه الأيام الثلاثة وقعت عدة أحداث ووصلتنا عدة أخبار، من بينها أن أصدقاءنا تم القبض عليهم من طرف العسكر بعد أن تم إطلاق الكلاب عليهم، فكان طارق أحد ضحايا هذه الكلاب حيث تعرَّض لتمزُّق في ساقه، وهو الآن يُعالَج في أحد المستشفيات، أما صديقنا هشام، فلقد عجَّل الرجوع إلى المغرب عبر الطائرة بعد أن نفِد صبره واستولى عليه اليأس، كما أُخبرنا كذلك بأن مجموعة جديدة من المهاجرين سيهاجرون بعد ثلاثة أيام ويمكننا الانضمام إليهم.

في هذه الأيام الثلاثة، كانت اتصالات السيدة خولة مُكثَّفة معي، وأصبحت طريقة حديثها مختلفة، كما أنها أصبحت تُفصِح عن بعض

خصوصياتها، ككونها في الثانية والأربعين من العمر، وأنها أرملة ولديها طفلة عمرها ثلاث عشْرة سنة، كما أنها تبحث عن شريك جِدّي في الحياة. فكَّرتُ أن أصارحها بأني متزوج ولا أبحث إلا عن زواج أبيض من أجل الحصول على وثائق الإقامة، لكني خِفتُ أن تغضب مني وتقطع اتصالها بي، وأنا ما زلتُ لم أستردَّ منها أموالي.

كانت المرة الأولى التي أقاطع فيها عبد الوهاب مُستفسِرًا:

- ماذا قلت؟ زواجًا أبيض! لا يمكنك ذلك ما دُمتَ متزوجًا بالمغرب.

ردَّ وقال:

- نعم، لكنني طلقتُ زوجتي، طلقتُها باتفاق بيننا، على أن يتم بصفة مؤقَّتة ثم نعود بعد ذلك.

- أراها مُغامَرة عمياء يا أخي. أتمِمْ لنا القصة.

قلتُ: قررنا الانضمام إلى تلك المجموعة الجديدة، وأوصيناهم بما يلزمنا من ألبسة وأمتعة وهواتف متواضعة، أمددناهم بأثمانها إلكترونيًّا.

بعد ثلاثة أيام كانت رجلي قد تعافت تمامًا.. أوصلنا أحد أبناء الشيخ إلى نقطةٍ وسط الغابة حيث سنلتقي مع المجموعة.

التقيناهم وكانوا سبعة شُبَّان إضافة إلى مرشدهم، انضممنا إليهم وودَّعنا الشيخ ومرشدنا الذي قرَّر العودة إلى تركيا.

بعد أن أطلَّت الشمس بلباسها الذهبي، كُنَّا نعبر السياج بسلام. انطلقنا في أرض بلغاريا وقلوبنا ترتعد خوفًا من هجوم مفاجئ.

الحمد لله، توغَّلنا كثيرًا في الغابة، وكانت المعاناة أكثر مِمَّا عرفنا من قبل.. نمشي ونهرول ونختبئ لَمَّا نعاين شخصًا من بعيد خوفًا من الإبلاغ عنا.. كانت الأرض ممتلئة بالأشواك التي زرعوها خصوصًا لتكون عائقًا في طريق المهاجرين.. كنا نعبرها أحيانًا زحفًا على بطوننا كالثعابين، وكم انغرستْ فينا أشواكُها، وكم مُزِّقتْ بها ثيابنا.. كنا ننصرف عن الدواوير والتجمُّعات، فنمكث في الأماكن المستورة حتى يجن الليل ونواصل سيرنا..

كثَّفتْ خولة اتصالاتها حتى لم تترك لي فرصة للحديث مع زوجتي، ثم تجرَّأتْ أكثر فصارت تكشف عن مشاعرها شيئًا فشيئًا. كنت أخاف أن يزلّ لساني بكلمة وعد بالزواج أو إبداء لأي شعور؛ لأني كنت أسايرها فقط من أجل الحصول على أموالي.

عبرنا بسلام الطريق المعروف بطريق 79 والذي أصبح محطة مراقبة الشرطة في أغلب الأحيان، وكان وصولنا إليه بعد يومين من المشي والمعاناة، ثم عبرنا الآخر المعروف بطريق 53 الذي كلفنا أربعة أيام للوصول إليه، ثم تجنَّبنا مدينة يامْبُل الواقعة جنوب شرق بلغاريا متجهين يسارًا، والتي يوجد بها القطار الذاهب إلى العاصمة صوفيا، تجنَّبناها لأنها كانت شديدة المراقبة في تلك

الأيام.. تفطَّرت أقدامنا بالمشي، وتهشَّمت أكتافنا بالأثقال التي نحملها. انزوينا تحت أشجار كثيفة ننتظر مجيء الليل وقدوم الخطّاف.

بعد أربع ساعات، كانت الفرحة تنعشنا ونحن نجوب شوارع العاصمة صوفيا، حيث نزلنا خِفية بالتتابع ودخلنا بيتًا بتسلُّل وبصمت كأننا لصوص ننوي سرقة بنك من البنوك.

مكثنا أيامًا هناك حتى نُجَهِّز أنفسنا لِما تَبَقَّى من الرحلة، هناك صارحتُ خولة بأني متزوج وأرغب في الحصول على وثائق الإقامة عن طريق زواج أبيض، قلتُ لها ذلك بعد أن تسلَّمتُ منها أموالي، فتريَّثَتْ قليلًا ثم قالت: حسنًا، سأساعدك على ذلك. لم أفهم المقصود من كلامها، لكني لم أطلب منها التوضيح.

كانت زوجتي على علم بتواصلي مع خولة منذ البداية، لكنها أخيرًا أصبحت تغار كثيرًا، خاصة عندما تتصل بي فتجد الخط مشغولًا.

في ليلة من الليالي خرجنا صحبة مُهرِّب آخر فقطعنا ساعة من الزمن في اتجاه الحدود، ثم واصلنا على أقدامنا نجوب الجبال الشاهقة ونقطع الوديان العميقة، حتى وجدنا أنفسنا على الأراضي الصربية دون اجتياز سياج أو سور.

عانق بعضنا بعضًا؛ لأن الهدف الأسمى قد تحقَّق، فالآن سنمشي باطمئنان ومن دون تخفٍّ، فالناسُ هناك طيبون ويُقدِّمون الإرشادات بكل رضا وسرور.

وصلنا إلى مدينة بِيروتْ وقصدنا أحد الملاجئ التي تُؤوي المهاجرين فتُكرِمهم بالأكل والشرب والمبيت. التقينا مع عديد من المهاجرين هناك، فاستمتعنا بسماع القصص والحكايات لكل مجموعة منهم. وبعد يومين بالملجأ، حدثتِ المفاجأة، لقد قَدِمتْ مجموعة جديدة كان من بينها أصدقاؤنا الثلاثة الذين فارقناهم عند الحدود التركية البلغارية، فصرخنا فرحًا وتعانقنا بشدة. سألناهم عن حالة طارق، فأخبرونا أنه بخير، لكنه قرَّر العودة إلى المغرب. قصصنا مغامراتنا ثم اتفقنا على أن نواصل جميعًا.

اتصالات خولة لم تتوقَّف لحظة، واستعدادها لدعمي ماديًّا كان جَلِيًّا، أما اتصالات زوجتي فعلى العكس؛ إذ كانت مُتقطِّعة وتحمل كثيرًا من اللوم والتأنيب ودَعَوات لقطع العلاقة مع خولة. حاولتُ إفهامها بأن أموالي على وشك النفاد، وقد ألجأ إلى الاقتراض من خولة إذا احتجت إلى ذلك، لكنها لم تتفهَّم.

بعد أسبوع قصدنا العاصمة بلغراد ثم مخيم سوبوتيكا للمهاجرين شمال صربيا، وكان دون المستوى، ثم خرجنا مع أحد المُهرِّبين في اتجاه الحدود، حيث وجدنا بالغابة مخيمًا يرأسه الأفغان ويؤوون -مقابل المال- من له الرغبة في العبور إلى هنغاريا.

مكثنا به ليلة واحدة، ثم رافقنا اثنان من المرشدين لاجتياز سِياجَيْنِ يفصل بينهما بضعة أمتار باستعمال السلالم. كان العبور سهلًا، لأنه على حسب ظني يتم بإرشاء دوريات الشرطة.

مشينا كثيرًا على أرض هنغاريا نتفقَّد موضع التقاء أحد المهرِّبين، وكان في الخلاء على طريق غير مُعبَّد. كان اللقاء معه في العاشرة صباحًا، إلا أن وصولنا إلى حدود النمسا كان في حوالي الرابعة مساءً.

اجتزنا الحدود الخالية من أي سياج، وأصبحنا على الأراضي النمساوية، فالتحقنا بمخيم إجباري حيث أُخذ منا البصمات وسُجِّلَت المعلومات الخاصة بنا، ثم نُقِلْنا إلى مركز استقبال طالبي اللجوء بالقرب من العاصمة فِيينّا، بقينا فيه ثلاثة أيام، ومن هناك كان افتراقنا.

توادعنا نحن الأصدقاء على دموع الفراق؛ حيث كان لكلِّ واحدٍ منا وِجهته الخاصة.

توجَّهتُ غرب البلاد إلى مدينة سالزبورغ مسقط رأس الموسيقار الشهير موزارت؛ حيث سألتقي مع خولة القادمة من مدينة ميونخ الألمانية، والتي تبعد فقط بمائة وخمسين كيلومترًا تقريبًا، لقد كنت مضطرًّا إلى الذهاب معها كوني لا أعرف أحدًا ولا أملك أموالًا لحجز فندق.

وصلتُ ظهرًا إلى المدينة، ومكثتُ بإحدى الحدائق، ثم أرسلتُ موضع وجودي إلى خولة عبر الواتساب. أخبرتني أنها ستكون عندي بعد عشر دقائق. لم أكن قد رأيتُ وجهها بعدُ، أما هي فكانت تعرفني؛ إذ سبق أن تواصلنا بالفيديو، إلا أنها كانت تُغطِّي عدسة كاميرتها حتى لا تظهر.. كنت أحترم رأيها.

أخبرتني أنها تركب سيارة سوداء من نوع مرسيدس، فصرت أتتبَّع بنظري كل سيارة من هذا النوع.

وقفت السيارة أمام مجلِسي ببضعة أمتار، نزلتْ منها امرأةٌ حسناء ثم نظرتْ إليَّ ولوَّحتْ بيديها.

ليست هي، هذه نصرانية، لا يمكن أن تكون بهذا الجمال والرشاقة، لا يمكن أن تكون شقراء بيضاء البشرة وفي عُمُرٍ أقرب إلى الثلاثين، مستحيل أن ترتدي سروال جينز وقميصًا ضيِّقًا وتضع نظارات شمس سوداء.. هذا ما حدَّثتُ به خاطري.

لكنها لمَّا رأتْ عدم تفاعلي تناولتْ هاتفها واتصلت بي لتتأكَّد من شخصي.. كانت حركتي لرفع هاتفي كافية لتتأكَّد أنِّي الشخص المقصود. قمتُ إليها على استحياء، فكيف لهذا الجمال والنقاء أن يقابل شخصًا أشعث أغبر، قد أوهنَهُ السفر وأرداهُ الدهر؟!

ابتسمتْ لي ثم صافحتني، وتساءلنا عن الأحوال ثم هنَّأتني أن وصلتُ مُعافًى سليمًا. نزلت ابنتُها الصغيرة التي كانتْ تركب في الخلف، فسلَّمتْ عليَّ ورحَّبتْ بي، ثم انطلقنا قاصدين ألمانيا، بلادُ بناء المستقبل وتحقيق الأحلام.

اتصلتُ بزوجتي فور وصولنا، فأخبرتها أنِّي بألمانيا في تمام الصحة والعافية، وبمجرد سماعها كلمة ألمانيا علِمت أنِّي بصُحبة خولة فأقفلت الهاتف، ولم تُعاوِدِ الاتصال. قلتُ هي مجرد غضبة عارضة وستعود.

أحسستُ لمَّا رأيتُ خولة بانسجام غريب معها، وشعرت بغريزة حب قوية تجاهها، لكن زواجي بها قد يمنعني الاجتماع بزوجتي وأبنائي وجلبهم إلى أوروبا.

كان الموضوع شائكًا ومُحيِّرًا، جعلني أُصاب بالأرق أيامًا عديدة.

دامت غضبة زوجتي كثيرًا، فلم تتصل ولم تترك أي رسالة، وظل هاتفها مقفلًا، ولم يدع لي تصرفها هذا خيارًا إلا أن أركن للعاطفة والواقع، فاتفقتُ مع خولة على مباشرة الزواج، فكانت البداية بزواج عُرفي على يد فقيه بالمسجد

وبحضور الشهود، على أمل أن نتبع المسطرة القانونية فيما بعد، بعد أن تُجهِّز بعضَ الأوراق.

لكن القط الذي كان بالأمس وديعًا أصبح اليوم نمرًا مفترسًا، والوادي الذي كان بالأمس هادئًا صامتًا أصبح اليوم رجراجًا صاخبًا.

عجزت المرأة عن كتم طِباعها وكبح رغباتها فغدت تُظهِرها وتُشبعها علانية، تختفي ليلًا ولا تظهر إلا صباحًا، تروح صاحية وتغدو ثمِلَة.. إذا استعْلَمتَها عن سبب خروجها ليلًا، تُعْلِمُك بأنها حُريةٌ شخصية، وإذا ذكَّرتَها بأنها مسلمة ولا يحق لها فعل ذلك، تجيبُك أنها التربية التي نشأت وشابت عليها..

نصحتُها ونصحتُها دون جدوى، حتى نفِد صبري لَّما اكتشفتُ أنها تخونني مع خليل لها، حينها لم أتردَّد في تطليقها وخرجتُ فارًّا إلى هنا صفر اليدين..

يصمتُ عبد الوهاب قليلًا ويطأطئ رأسه فاسِحًا المجال لأدمُعِه بالتدفُّق، ثم يواصل قائلًا بصوت مبحوح: لقد خسرتُ زوجتي وأبنائي من أجل لا شيء، خسرتُ حياتي وضيَّعتُ عُمري، كل تلك الرحلة كانت من أجل هذه الخيمة التي تراني أنام فيها.

طلبتُ منه أن يترك رسالة لأم أبنائه فصوَّب نظره إلى عدستي وقال:

أُعذريني يا حبيبتي، لقد أخطأتُ في حقِّك، لكن اعلمي أني فعلتُ ذلك من أجلكم ومن أجل بِناء حياة كريمة لكم. سامحوني جميعًا فلم أكن صائبًا فيما فكَّرتُ وقَدَّرتُ. إن رجعتم لي فسأنفّذ كلَّ ما تطلبونه مني. أحبكم كثيرًا.

دعوتُ له بالفَرج ثم ودّعتُه وانصرفتُ.

بعد ساعات قليلة من نشر الفيديو على اليوتيوب، فاجأتني على الواتساب رسالة من السيدة خولة تقول:

أشكرك سيدي على ما تُقدِّمه في قناتك الهادفة، فأنا من المتابعين لك منذ البداية. أحب أن أخبرك أني شاهدت فيديو أمس، وأني السيدة خولة، طليقة عبد الوهاب من ألمانيا.. وجدتُني مضطرة إلى التدخُّل من أجل إزالة الغبار عن الحقيقة المطمورة، وسأوافيك بكل الإثباتات عمَّا سأقوله.

نعم كانت بداية علاقتنا كما أخبرَك، لكني أحجمتُ عن التواصل معه منذ عرفت أنه متزوج ويبحث عن زواج أبيض، إلا أنه كان متشبِّثًا بي، خاصة عندما يحتاج إلى المال، لقد أرسلتُ إليه في رحلته وفي مناسبات مُتفرِّقة ما مجموعه ثلاثة آلاف دولار ولم أطالبه بردها، ولا أخفيك أني حقًّا وقعتُ في حبه، خاصة أنه كان يشبه زوجي المُتَوفَّى في عدَّة أشياء.

عند التقائي معه، أقنعتُه بأن نكتفي بالزواج العُرفي الصحيح، وأن أبحث له عمَّن تُوثِّق معه الزواج على الأوراق فحسب وأنا أتكلَّف بالشقّ المادي،

هكذا حتى نتمكَّن من العيش معًا، وحتى يستطيع إرجاع زوجته لاحقًا واصطحاب أبنائه. تمكَّنتُ بعد عناء من إقناع زوجته بالفكرة. بعد أن تمَّ الزواج وشرعتُ أبحث عمَّن تُوَثِّق معه زواجًا أبيض، تغيَّرت طِباعُه إلى أسوأ، كان ذلك لمَّا عاشر شِلَّة من الرفقاء، فأصبح كبُومةٍ تنشطُ ليلًا وتنكمش نهارًا، ويفعل كل ما اتهمني بفعله، سَهرٌ وسُكرٌ ومعاشرةٌ للنساء، ثم صراخٌ وكسرٌ للأثاث وصولًا إلى الضرب أحيانًا. كان بالإمكان إخبار الشرطة، لكني منحته الفرصة بعد الأخرى، حتى عرضتُ عليه الانخراط في مركز التعافي من الإدمان، إلا أنه أبى.

نصحَتْه زوجته أكثر من مرة حتى أصبح لا يرد على اتصالاتها، فأقسمتْ لي ألا ترجع إليه أبدًا.. ثم تمادى في غيِّه حتى هدَّدتُه بالشرطة وطلبتُ منه الفراق. بعد عِشرة دامت سنة كاملة، وقع الطلاق.. حمل أمتعته وانصرف. هكذا كانت الحقيقة، ويؤسفني جدًّا ما آل إليه، فلقد أذرفتُ عليه الدموع لأني ظننته قد سوَّى وضعيَّته. وإليك رسائله الصوتية التي كانت بيننا، والفيديوهات التي سجَّلتُها عندما كان يرجع إلى البيت ثَمِلًا فيشرع في انفعالاته الحيوانية، لكن أترجَّاك أن تتركها عندك في غاية السرية.

اِطَّلَعتُ على الرسائل الصوتية والفيديوهات المُسجَّلة، فلم يبق عندي أدنى شك في صحةِ أقوالها وزيفِ أقواله، وتأسَّفتُ لقصَّتِه وللحرمان الذي ساقه لأبنائه.

# مَشهدٌ في صورتينِ

أخيرًا أُفرِجَ عن قسيم.. إنها اللحظة التي يُودِّعُ فيها آخر بقعة من السجن.. وها هي عيناه تلتقط آخر شعاع ينعكس من سوره الحزين الباكي.. حزين عليه إذ قضى خمس سنوات ظلمًا وقهرًا، وباكٍ عليه إذ فارق رجلًا عُرِف بخُلقه الحسن وسلوكه الطيب..

غادر بعد أن وصلتْ أخيرًا إلى باب المحكمةِ سيارةُ الحقيقة التائهة، احتاجت إلى خمس سنوات كاملة؛ حتى تهتدي إلى السبيل المفضي إليه، وتهبه شهادة البراءة في حادثة قتلٍ كان قد حُوكِم فيها بعشرين سنة نافذة.

لم تكن له يد في القضية لا مِن قريب ولا مِن بعيد، بل ساقه حظه التعس إلى أن يكون فاعل خير، توسَّط لفك نزاع بين شخصين متهوِّرَيْن في جُنح الليل وفي درب خالٍ من الأنام، ولَّما تمكَّن من المباعدة بينهما، باغت أحدهما الآخر فغرس خِنجرًا في صدره ولاذ بالفرار..

سقط المضروب أرضًا وهو يتأوَّه ألَمًا.. عَمِهَ قسيمٌ وحَارَ كيف يُنقذ هذا الصريعَ ويُخلّصه من الهلاك، فهو لم يعتد العيش في موقف كهذا.. بعد هنيهة، غمرته فكرة ظنَّها تكون المنجية، وهي الإسراع بنزع الخنجر من صدره، فشحذ

قواه لجذبه، وكانت أجزاؤه قد اخترقت القفص الصدري وسكنت في جوف القلب..

تدفَّقت الدماء بشدة وغطَّت الأرض، وارتفعت شهقات المطعون وارتخت جفونه، ثم تلاه هدوء مع انخفاضٍ في وتيرة التنفُّس، ذلك الانخفاض الذي لا يُفَسَّر إلا باقتراب خروج الروح وانتقالها إلى بارئها..

ارتعدتْ أوصال قسيم، واشتد خفقان فؤاده، ثم تصبَّب جبينه عرقًا، فغدا كالمجنون يروح ويجيء قرب الطريح، ويدور بعينيه يمينًا وشمالًا علّه يجد شخصًا يستفتيه في الأمر، ولما استيأس، توجَّه إلى مخدع قريب من أجل الاتصال برجال الإسعاف..

دخل المخدع مسرعًا متوترًا ويده مُلطَّخة بالدماء، ثم ألقى بعض الدراهم في صندوق الهاتف، ومرَّر الاتصال..

لمح صاحبُ المخدع يدَ قسيم الملطخة، فارتعد وتصلَّبت عروقه خوفًا وذعرًا، ولَمَّا استرق السمع وفهم القصة، رفع هاتفه ونادى فورًا الشرطة..

بعد عشر دقائق كانت سيارة الإسعاف تحمل المطعون الذي فارق الحياة، في حين سيارة الشرطة تحمل قسيمًا إلى مخفر التحقيق..

كل الأدلة على تورط قسيم كانت كافية للاشتباه به والحكم عليه عشرين سنة، إلى أن ظهرت الحقيقة بعد خمس سنوات بعد أن تورَّط الجاني في عملية قتل أخرى، فاعترف بالثانية والأولى..

الآن بعد خروجه من السجن، يظهرُ كمن نُزِعَت قطعة من الثوب كانت قد لُفَّت حول عينيهِ، وقف على الرصيف متفقِّدًا بساط الأرض الضارب حوله من كل الجهات، ومحدِّقًا بنظره إلى عنان السماء كأنه الحمام الزاجل يستقصي طريقه للرجوع إلى وكره المعتاد.. يتنفَّس بعمق وأجفان عينيه تلتصق ببعضها كأنه ينشُد الاستمتاع بلذة السكينة النافذة مع الهواء، ثم ما لبث قليلًا حتى توقَّفت أمامه حافلة تتجه إلى مدينته، التي فارق بينه وبينها الحادث الأليم.

جلس بالحافلة وحيدًا في مقعد خلفي يجاور نافذة الإغاثة، وكله شوق إلى لقاء والدته التي لم يسمع أخبارًا عنها منذ أربع سنوات، وكذلك رؤية ابنة خاله لمياء التي أبت جنود الدنيا أن تأتيه حتى بفتات أخبارها لنفس عدد السنوات..

ترك قسيم خلفه والدة في الثانية والستين من العمر، وأختًا أتمَّت العشرين، وكان المُعوَّل عليه في القيام بتكاليف البيت لأن أباه فارق الحياة وعمره لم يتجاوز عشر سنوات..

ترك لهم والده بيتًا من طابقين، وأرضًا زراعية..

كان قسيم ووالدته وأخته يسكنون الطابق السفلي، أما العلوي فكانوا يُؤجِّرونه للأُسَر أو للطلبة الذين يدرسون بالجامعة، وكذلك يفعلون بأرضهم الزراعية بثمن بخس يأتيهم مرة في السنة.

قبل ليلة الفاجعة، كان قسيم يُحضِّرُ نفسه لِخطبة ابنة خاله لمياء، فلقد جمع الحب بينهما ولَمَّا يبلغا الحلم بعد، وكان خبر الانسجام بينهما قد بلغ كل الناس، بل حتى الطيور التي كانت تُحلِّق بجوار البيت، كانت تُغرِّد وترقص فرحًا لهما.

بعد أن ولج السجن الكائن في مدينته، كانت تزوره والدته وأخته أسبوعيًّا، فيتناول معهما كل صغيرة وكبيرة عن العائلة، وكم كانت فرحته تبلغ ذروتها حينما تجلب له أخته رسالةً من لمياء، فلقد كانت تُنسِيه مِحنة السجن، وكان يرُدُّ عليها بالمثل في الأسبوع الذي يليه، بعد أن يمنح رِشوةً للسجَّان من أجل إحضار قلم وورق للكتابة..

انتهى كل ذلك بعد عام.. انتهى بعد الليلة التي وقع فيها حريق داخل السجن، قضى فيه مئات السجناء وحُرَّاس الزنازين.. وفي صباح اليوم الموالي لهذه الكارثة، نُقِل الناجون إلى سجن في مدينة أخرى تبعد مئات الكيلومترات ريثما يُعاد تهيئة السجن من جديد، لكن لسبب من الأسباب، بقي السجن على تلك الحال شاهدًا على آلام الموتى وأحزان الأقارب.

احترقت أوراق الأرقام الهاتفية التي كانت صحبة قسيم، وصارت رسائل لمياء رمادًا وسط رماد الأفرشة والأمتعة، ثم ذرات في الهواء ومجاري المياه.

جَيَّشَت الدنيا كل جنودها لتحرم قسيمًا سماع أخبارٍ عن أهله على الرغم من تقصِّيها من طرفه، فلقد كانت جميع محاولاته تبوء بالفشل.

ها هو الآن يستحضر لحظة انفتاح باب بيت والدته، وتطابُقَ نظراته مع نظراتها، فكيف سيُهَدِّئ مِن هَول المفاجأة؟ وكيف سيضبط نبضات فؤادها؟ وهي التي كانت تضمه إلى صدرها بعد كل غياب يغيب فيه لساعة، ثم تحمد الله أن أرجعه سالمًا.. كانت تخشى عليه حتى من شوكةٍ يشكوها، ولا تكفُّ عن تقديم النصائح له تجنُّبًا لكل سوء.. ثم ما يلبث حتى ينتقل بخياله إلى بيت خاله حيث يقف كشبح مباغت في وجه لمياء، وهي التي قطعت الأمل في ملاقاته مرة أخرى.. أمينةٌ هي، كانت تعِدُه في رسائلها بالانتظار حتى خروجه من السجن ثم يكون الزفاف، ذاك الزفاف الذي كان كطائر دَشَّن حركة الطيران، فإذا به يقع في شراك أحد هواة تربية الطيور، فزُجَّ به في قفص متينٍ إلى أن تأتيه الفرصة للهروب..

تُرى كيف ستكون بعد هذه المدة؟ يقول قسيم في نفسه. هل سيزداد جمالها وهي التي كانت سُتُر الجمال تنكشف عنها عامًا بعد عام؟ ألا يزال بريقُ عينَيها يخترق كلَّ مُحَدِّق إليها؟ هل ستبقى ابتسامتها التي حينما ترسمها على وجهها

تنبعث معها قذائفُ البهجة والانشراح، فتُؤَثِّر في كل ناظر إليها؟ أم ذَبُل كلُّ ذلك بعد انقطاع الأخبار بيننا؟ آه، مَن يأتيني بأخبارها قبل ملاقاتها، حتى أستعدَّ للمفاجأة، وأستأنس بهول الصدمة.

ما زالت المسافة الفاصلة بين قسيم ومدينته طويلة، فالطبيعي أن يصل إلى محطة الوصول الساعةَ الثالثةَ زوالًا.. خمس ساعات تفصل عن حضن الوالدة وفرح الأخت فدوى، وبعدها بقليل يكون هول اللقاء يجمعه بالخال وزوجه وابنيهما أمين ولمياء..

تبدو الساعات طويلة.. تمنَّى قسيم لو أن السائق يزيد من سرعته، أو يسلك طريقًا يشقه لنفسه حتى تُطوى له الأرض وتُختَصَر له المسافات، لكن لا يملك إلا الذكريات يشغَل بها نفسه ويُطفئ بها لوعةَ استعجال اللقاء.. اِجترَّ كلَّ شيء يجمعه بلمياء.. اجترَّ كلمات الرسائل وعباراتها الرنانة، ولحظات اللقاءات بين الأهالي وما دار فيها من نقاشات وحوارات.. وعاود النظر إلى تلك الصورة المتبقية، والتي تجمعه بلمياء لحظة خروجها للحياة؛ إذ كان في عُمُر الخمس سنوات، وأبى إلا أن يحضنها ويضع رأسها على ذراعه اليسرى، ويغدقها بالابتسامات..

أدار سائق الحافلة مفتاح التشغيل إلى نقطة إيقاف المُحرِّك مُنبِّئًا بالوصول إلى محطة النهاية، فاشتد نبضُ قلب قسيم وهو مُتلهِّف لبلوغ عتبة الدار..

ركب على جناح السرعة سيارة أجرة، وشرع في الطريق ينثر بصره في كل جانب علَّه يرى شخصًا يعرفه إلى أن وصل إلى البيت.. ودَّع السائقَ ونزل..

القلبُ في صدر قسيم كأنه طائر عالِقٌ في شَرَك صائد، يتخبَّط بقوة يريد الفرار من جسامة الحدَث.. هو الآن مرتبك، أَيقرعُ البابَ أم يظل واقفًا منتظرًا حتى تفتحه إحداهما ابتغاء الخروج؟ يلتفت يمنة ويسرة علَّه يصادف أخته راجعة من سُخرة، فيخطِّط وإياها كيف يُخفِّفان الصدمة عن والدتهما، لكن عبثًا يُحاول..

يتقدمُ بخُطًى ثقيلة، ثم يرفع يده للضغط على زر الجرس المعلَّق بجانب الباب.. يتردَّد.. يسحب يده.. ثم يرفعها من جديد.. يسحبها مرة ثانية.. هي ترتجف.. يمدها مرة ثالثة وينجح في الضغط على الزر..

استدار مُولِّيًا ظهره إلى الباب وكله اضطراب وخوف.. لبث قليلًا دون أي تجاوب.. كرر الفعلة مرة أخرى واستدار.. بعد هنيهة سمع صوتَ مشْيٍ قُرب الباب من الداخل.. ازداد قلبه خفقانًا حتى أوشك على الغشيان.. انفتح الباب..

استدار قسيم بتأنٍّ.. تقابلت عيناه مع مَن بالباب.. لم تكن أخته ولا حتى والدته، بل كان شابًّا غريبًا.. اندهش قسيم ولبث هنيهة من الزمن ينظر إلى الشاب دون أن ينبس ببنت شفة.. ولما بادره الشاب بالترحيب، كان على قسيم

أن يعتذر ويستفسر عن صاحبة البيت إن كانت موجودة، لكن الشاب أخبره بدهشة أنها تُوفِّيَت قبل ثلاث سنوات ونصف، وأنها ماتت مفجوعة بخبر وفاة ابنها المسجون، وقد اكترى منها البيت قبل وفاتها بأيام، ثم ارتحلتْ مع ابنتها للإقامة مع أخيها.

دارت الأرض بقسيم، وطارت الشمس من مجرتها حتى ادلهمَّ الظلامُ حوله، فأزَّته الصدمةُ أزًّا وجثا نائحًا كالمرأة الثكلى، والشاب ينظر إليه ولْهانًا حيران، حتى استوعب أنه لا يكون إلا ابنها المفقود.. حاول تهدئته ومواساته، وبعد معرفة قصته دلَّه على مكانها في المقبرة المجاورة، فأسرع زائرًا لها..

هو الآن أمام جَدَثها يُكلِّمها والعَبرات تتدفَّق من عينيه:

والدتي الغالية، أيُّ أرضٍ أَرْضى بالمشي فوقها وأنت في بطنها؟ وأيُّ سماء أسمو إليها وأنت غائبة من أجرامها؟ كيف دونك يطيب لي العيش؟ وكيف أقوى بعد أن أخذتِ معك كل القُوى؟ كنتُ أودُّ أن أضمك إلى صدري لأقتبس منك ما أنتصر به على البلاء، وأستنشق عطرك لأطارد به ما تلوَّثَ من الهواء، وأنصت إلى كلماتك كي أحفظ منها ما أصرع به الأعداء، لكن هو قدَر الله ولا نرجو منه إلا التوفيق لإرضائك بما نهديه إليك من حسن الدعاء، فرحمك الله رحمة واسعة وجعلك في الجنات مع زوجات الأنبياء..

ثم أكثر من الدعاء وانصرف قاصدًا بيت خاله.

بعد ساعة، وقف أمام البيت ينتظر هدوء نفسه وخمود رعشته، تلك الرعشة التي كانت تغمره كلما وطئت رجلاه هذا المكان منذ كان صغيرًا، أو كلما لمحت عيناه شخصَ لمياء تتحرَّك أمامه.. أمسك بيده المرتجفة سِياج الحديقة الموجودة في مدخل البيت الفسيح وشرع يتأمل مواضع الذكريات موضعًا موضعًا.. شرع يستحضر اللحظات الجميلات المكنونة بين الأشجار والأزهار، والمدفونة تحت الأعشاب والنباتات.. كم شهدت هذه الأماكن من أحداث غادر أصحابها وبقيت متصلِّبة تنتظر من يجترح مثلها مِن الأجيال الصاعدة..

قبل أن يمد يده للضغط على زر جرس الباب الخارجي، سمع صوت انفتاح الباب الرئيسي للبيت وهو الباب الداخلي، الذي يبعد بعشرة أمتار عن السياج.. كان الخارج منه هو ابن خاله أمين..

تلكَّأ أمين في مشيته لما رأى شخصًا واقفًا خلف السياج وأخذ يُحقِّق فيه لعلَّه يعرف مَن هو.. لكنَّ قسيمًا عرفه بسهولة، فأنشأ يقول:

نعم إنه هو حقيقة.. إنه ابن عمتك قسيم.. إنه هو لم يمت كما شاع..

اقترب منه أمين بخُطًى متثاقلة وهو مندهش مذعور.. اقترب وهو يحملق في وجهه، ولما تأكَّد منه، رجع مهرولًا إلى الداخل وهو ينادي أمه بأعلى صوته، ويصرخ باسم قسيم وبأنه لا يزال حيًّا..

خرجت زوجة خاله مهرولة مذعورة وهي تصيح وتُكبِّر، ففتحت الباب وعانقته عناقًا حارًّا، عناقًا سالت معه العَبرات، وانطلقت معه الشهقات والزفرات..

دخل صحبة زوجة خاله وابنها أمين، ولما استوت الجلسة في الصالة المهيَّئة للضيوف عَزّته في وفاة والدته وأوصته بالصبر. بعدها قال قسيم متسائلًا:

أين خالي وأختي ولمياء؟

ردَّت زوجة خاله: خالك في سفر لمدة أسبوع، أما أختك ولمياء فلقد خرجتا لجلب بعض الأغراض وستعودان.. الحمد لله على كل حال، لم نتوقع أن نراك من جديد، أخبرنا عن قصتك.

قصتي غريبة، في السجن كنا مُقَسّمين إلى مجموعات من ستة أفراد، كل مجموعة في زنزانة، كُنتُ من حين لآخر أجتمع خِفية بصديق لي من زنزانة أخرى بعد أن أتبادل مع شخص آخر؛ حتى نحافظ على نفس العدد في كل مجموعة. وفي الليلة التي وقع فيها الحريق، كنتُ في الزنزانة الناجية، أما ذلك الشخص فكان مع كل رفقائه ضمن الضحايا.

في صباح اليوم الموالي أرسلت إدارة السجن إلى عائلات الضحايا -كما أرسلت إليكم- تخبرهم نبأ وفاة أقاربهم، وكان ذلك بناءً على أسماء السجناء الموجودين بكل زنزانة؛ لأن جثثهم كانت مُتفحِّمَة يستحيل التعرُّف عليها..

لَمَّا سمعتُ هذا الخبر، لم أستطع البوح للإدارة بالحقيقة خوفًا من العقاب، وبقيتُ هكذا مدة طويلة حتى اكتشفوا أمري.. عُوقِبتُ بوضعي بزنزانة انفرادية وأجبروني على إبقاء هذا سرًّا لا أخبر به أي أحد..

بينما قسيم يتقاسم أخباره مع زوجة خاله وابنها، اخترق مسامعهم صوتُ رضيع من إحدى الغُرَف المجاورة، فقامت زوجة خاله مُسرِعة نحوه.. استغرب قسيم لَمَن يكون هذا الرضيع، فاستفسر مِن أمين، فرد عليه متلعثمًا:

- إنه ابن أختي لمياء.
- لمياء؟ أختك؟ رد قسيم وعلامة الدهشة تكسو ملامح وجهه.
- نعم.
- وهل تزوجت؟
- نعم منذ سنة تقريبًا، ولقد جاءتنا اليوم زائرة.
- وأين زوجها؟
- صاحَب والدي في سفره لتسوية بعض الأمور.

أصيب قسيم بصدمة حبست كلماته في حنجرته ومنعته من الكلام هنيهة من الزمن، وخُيِّل إليه أن سقف البيت قد انهار عليه..

حاولت زوجة خاله التخفيف عنه بأن تشرح له الوضع.. وبينما هم كذلك، طُرِق الباب منبّئًا بقدوم أخته ولمياء.. فتحت زوجة خاله الباب،

وشرعت في التمهيد لخبر قسيم.. صاحت أخته بأعلى صوتها وهرولت لمعانقته باكية، أما لمياء فجمدت واقفة مكانها وهي تنظر كالغريبة، ثم ما لبثت أن سقطت مغشيًّا عليها.. اعتنت بها والدتها إلى أن استفاقت، لكنَّ سقيمًا استأذن منهم على الخروج إلى الشاطئ قليلًا..

وهو يكافح عبراته النازلة، ويعترض سيول المشاعر المتداخلة، ويقاوم وجع الصدمة بعد الأخرى، سمع خلفه مناديًا يناديه باسمه.. وكان الصوت خافتًا مضطربًا يكسوه الحزن والكآبة.. استدار ببطء وما زالت عيناه تذرفان..

قالت بصوت منكسر والحزن بادٍ على وجهها:

- آسفة إن قطعتُ عليك خلوتك..
- لمياء!! أنتِ؟؟ كيف صرتِ الآن؟
- أحسن مِمَّا كنت، والحمدُ لله.

قال بصوت خجول وهو يصارع العَبَرات المتدفِّقة:

- كيف عرفتِ أني هنا؟
- أرجوكَ لا تبكِ يا قسيم، فلقد عهِدتك شهمًا شجاعًا..
- ومتى كان البكاء يُمنَع بالشهامة والشجاعة؟ هل أخبروك أني هنا؟
- لا، لكني أعرف أنك مخلص للأمكنة التي أمضيتَ فيها طفولتك وأزهقتَ فيها ماضيك، أليس هذا هو المكان الذي كبرنا فيه ونحن نلعب

ونمرح، نصطاد الأسماك تارة، ونرتمي في أحضان البحر تارة أخرى؟ أليس هذا هو المكان الذي كُنَّا نستقبل فيه نسيم الصباح حينما يخرج من مخبئه، ونودِّع فيه الشمس عندما تُغيِّر ثيابها في الغروب؟ أليست هذه هي الصخرة التي كُنَّا نستبق إليها كي نمتطيها ونترك الأمواج تداعبنا لَمَّا يكون البحر غاضبًا؟

قال بصوت تَعِب بعد أن حوَّلَ رأسه إلى البحر:

- بلى، وليتني ما عرفتُ هذا المكان ولا عِشتُ تلك الأحداث، بل ليتني مِتُّ يومَ قضى السجناء، ولم أعش حتى أُطعَن بخنجرين مَثْلومَينِ في يوم واحد.. كنتُ أعرف من زمان أني مشؤوم لا حظّ له، تلاحقه قذائف المصائب من كل جهة.. أُصِبْتُ بقذيفة موت الوالد وأنا لا أزال أهوى اللعب مع الصبيان، ثم مصيبة السجن التي قطعت تأهُّبَنا لخطبتك من خالي، ومصيبة الخبر الكاذب بموتي الذي قضى على كل اللقاءات التي كانت تُريحني من حين لآخر.. كنت أعلم بلعنة قيس وليلى تلاحقنا لا لذنب اقترفناه إلا لأن بداية اسمينا وافَقا حرفين من بداية اسميهما..

قاطعته قائلة:

- لكنك نِلتَ البراءة وتمكَّنت من الخروج، أليست هذه نعمة تحمد الله عليها؟

- لستُ أدري إن كانت نعمة أم نقمة، ألا ترينَ أني بين فقيدين؟ هل أبكي أمي التي اختطفها الموت وعانقتها بطن الأرض، وكان في نفسي شوق لأضمها وأستنشق ريحها وحديثها؟ أم أبكي التي كنتُ أهواها وأعُدُّ الثواني للقائها، فإذا بها مُكبَّلة بحبال زيجة حطَّمتْ كل الآمال وقضتْ على كل الأحلام؟ آه كم أنت قاسية يا دنيا!

ردَّت والدمع يجري على خديها الناعمتين:

- لا تلمني يا قسيم، فلم يكن هذا الزواج إلا امتثالًا لأمر والدي، الذي ظنَّ فيه شفاء لي من الذي أصابني بعد سماع نبأ وفاتك.. لم أستجب على الفور، بل استنكفتُ وامتنعتُ مدة ثلاث سنوات حتى تعبتُ من المناورة.. لقد ظنَّ المسكين بقراره ذاك أن الحب الذي كان بيننا، ما هو إلا وَهْم لا يطفئه ويزيله إلا الارتماء في حضن رجل آخر.. لكن هيهات هيهات، كنت أغرق في دموعي وأنا أشعر بالذنب، بعدما أجيب هذا البعل عن سؤاله إن كنت أحبه، فأجيبه قائلة ولا أزيد: طبعًا، وهل هناك امرأة لا تحب زوجها؟ كذلك أتضوَّرُ ألمًا حينما يخبرني بأنه يحبني حد الجنون.. لا أتألَّم لأنَّه يحبني، بل لأنِّي لا أستطيع أن أبادله الشعور ذاته..

تقدَّمتْ إلى قسيم ووقفتْ بجانبه، وهي ترمي ببصرها حيث يرمي به في وسط المحيط، ثم أردَفَت قائلة:

- لا تدري يا قسيم كم عانيتُ وقاسيتُ إبان نزول خبر موتك على مسمعي.. لقد اسوَدَّت الدنيا في عيني ولم يعد يهمني فيها شيء.. تمنَّيتُ لو كان أصابني الموت بدلًا منك، أو أن ألحق بك في القريب العاجل، لكن لا يملك الروح إلا بارئها، وهو من يُسيِّرُها كيف يشاء.. كنت أزور المقبرة التي جُعِلَت مثوًى لهؤلاء الضحايا، وبما أن ألحادهم خالية من أسمائهم لأنهم لم يتمكَّنوا من معرفة أصحابها، فكنت أقف قرب كل واحد منهم فأتخيَّله أنك أنت، فأذرف على ترابه الدموع وأدعو له.. وهكذا كنت أقضي الساعات والساعات بين الألحاد حتى ينهاني حارس المقبرة ويأمرني بالانصراف.. ظللتُ على هذه الحال شهورًا عديدة، حتى زوَّجني والدي خوفًا أن يصيبني الجنون.. ومع ذلك لم أنسَك ولَوْ للحظة.. كنتُ أراك في كل مكان، في حديقة الدار، في غرفتي التي أنام فيها، في المطبخ، في المرآة التي أقف أمامها كل صباح، بل حتى في عينَيْ زوجي.. وكيف أنساك وقد سمَّيتُ ابني باسمك، والكل ينادي به عشرات المرات في اليوم والليلة.. وحتى عندما أنشغل عنك بمشاغل الحياة، كنتَ تقف أمامي في المنام لتُهديني وردة تفوح أريجًا وعِطرًا، فأصحو وأنا شاردة الذهن لا أفكِّر إلا فيك.. نعم كنتُ وعدتك بالانتظار، حتى لو قضيتَ المدة كلها بالسجن، لكن لَمَّا استيأستُ من رؤيتك، وأبى ملك الموت أن يأخذني إليك، وتلقَّيتُ إلحاحًا من والدي، رضختُ لضغط الواقع وقبلتُ بذلك الاقتران..

- لا عليكِ يا لمياء، أنا لا ألومك على شيء يفوق طاقتك ويُجاوز قدراتك.. كذلك عِشتُ الآلام والعذاب وأنا بين جدران الزنزانة محبوس ظلمًا وقهرًا، لا أتسلَّى إلا بإعادة قراءة رسائلك والنظر في تلك الصور التي جمعتنا منذ الصغر، والتي لم يسلم منها إلا هذه الصورة التي كانت بجيبي في تلك الليلة..

أخرج الصورة من جيبه وأظهرها لها، فتذكَّرتها وهي تبتسم حتى تسرَّبت دموعها إلى فيها، ثم استأنف قائلًا:

- أنا الآن أشعر كأنِّي طائر فرَّ من القفص وهو يتلهَّف شوقًا للعودة إلى صغاره، فإذا به يجد الغابة التي كان يسكنها قد احترقت وأصبحت رمادًا، فغدا هائمًا في السماء لا يدري أين يحل.. أشعر بالانهزام والانكسار وأنا الذي كان يُضرَب به المَثل في الثبات والصمود، لكن خبِّريني بربك، أيُّ قلبٍ يقوى على مفارقة الوالدة والحبيبة في آن واحد؟ أي رجل يصمد لمنازلة خصم الفقدان إلا إذا كان يحمل أكثر من قلب في جوفه.. صدِّقيني يا لمياء، أُفَضِّلُ لو بقيتُ في السجن أسمع مناداة السجناء وهم ينادونني بمجنون لمياء، وأعيش هناك وسط أحلامي وأمنياتي خير لي من أن أكون طليقًا، واليأس والضلال يحيطان بي من كل جانب..

- أنت يا قسيم بأقوالك هذه لا تزيدني إلا احتراقًا ودمارًا، فلا تظُنَّني أشكو أقل مِمَّا تشكو منه، بل شَكاتي أكبر وأعظم، فإن كنتَ الطائر الهائم في السماء، فأنا العصفورة الناجية وقد احترق جناحاها، وبقيتْ عالقة وسط الرماد..

- لقد كنتُ أرى نفسي قويًّا وسعيدًا وأنا أُمَنِّي نفسي الظفر بك، أما الآن فأرى نفسي كجسدٍ ميتٍ ينتظر أن يُوارى الثرى.

- لا تقل هذا يا قسيم، فما زلنا بالحياة، ومن كان حيًّا لا يجب عليه أن يستسلم.

التفتَ إليها وسألها باستغراب:

- ماذا تقصدين بهذا؟

قالت بنبرة أكثر وضوحًا مِن سابقاتها بعد أن استجمعت قواها:

- سأطلب منه الطلاق.

ردَّ بنفس النبرة:

- لا، لن أسمح أن يكون هذا، وما ذنبه هو؟ إنه لم يسمع بقصتنا ولا حتى يعرفني، وما ذنب الرضيع الذي يفارق أباه؟ كيف تجرُئين على ذلك؟

- بل قل كيف تجرُئين على خيانته ما تبقى لكِ من الحياة معه؟

- لم أفهم ما تعنين؟

- عِلْمي بحياتك ووجودك سيأخذ ذهني وقلبي وكل جوارحي، ولا يجد ما أعطيه له، أليست هذه خيانة؟

صمتَ قسيم وهو ينظر إلى مكان الغروب ورداء الظلام بدأ يُغطِّي الوجود.. صمت قليلًا ثم قال بلسان الشارد الذي يمشي على غير هدًى:

- لمياء، عودي الآن إلى الدار، فقد يكون الرضيع بحاجة إليك.

ابتسمت ابتسامة خجولة مُتكلِّفة، وقالت:

- بل قُلْ عودي إلى قسيم، فلقد أصبحتُ الآن بين قسيمين.

ابتسم وقال لها:

- عودي إلى طفلك قسيم، سألتحق بالبيت بعد قليل.

انصرفتْ مسرعة، وانصرف هو ببصره إلى مهبط الشمس، وقد اكتسى البحر رداء الظُّلمة فغدا مستورًا لا يظهر منه إلا بياضُ بعض الأمواج الثائرة، كأنها تحتجُّ دفاعًا عن حق سُلِبَ منها.. تمنَّى لو كان مثلها يستطيع الدفاع عما سُلِبَ منه، لكن لِمَن يرفع شكواه، ومَن هو الغاصب الذي سيثور ضده، وما هي إثباتات الظلم التي يملكها؟

وقبل أن يزيغ ببصره عن تلك الأمواج المتراقصة، وقبل أن يتوقَّف شريط الأفكار عن الدوران في خياله، وقف بجانبه شيخ قد غطَّتْ سنونُ الدهر ملامح وجهه برداء الشيخوخة، وأصبغتْ شعر لحيته باللون الأبيض،

وجعلت ظهره ينحني تواضعًا وخنوعًا لخالقه.. وقف ثم ألقى التحية على سقيم، وبعد أن ردَّها عليه، أردف الشيخ قائلًا:

- عُذرًا بُنَيَّ أجدني غير قادر على كبح رغباتي الطائشة في معرفة سبب وقوفك كل هذه المدة، وأنت مستند إلى هذه الصخرة مُركِّز النظر في اتجاه البحر كأنك تحاوره وأنت كئيب حزين، فلقد تركتُك لمَّا حَللتَ والشمسُ ما زالت تُرسل أشعتها، ورجعتُ وأنت بمكانك على نفس الهيئة وقد بسط الظلام رداءه على الكون، فحزَّ في نفسي أن أتركك دون أن أُقدِّم لك ما أستطيع من مَعونة، فهلَّا حكيت لي قصتك؟

التفتَ إليه قسيم وهو يُحقِّق في وجهه، فلمَّا اطمأنَّ إليه، قصَّ عليه حكايته من بدايتها إلى نهايتها، فقال الشيخ:

- قصتُك نادرة ومؤلمة يا بُنَيَّ، وما هذه الدنيا التي نعيش فيها إلا كنهر جارٍ رجراجٍ، نطفو عليه بِقاربنا الضعيف، يأخذنا كيف يشاء وإلى أين يشاء، يعلو بنا على الأمواه المُسالِمة تارة، ويلطم الصخور بنا تارة أخرى، فنستمتع في الأولى ونتوجَّع في الثانية، لكن بقدر صبرنا ننال الأجر والثواب، وما أراك إلا شابًّا صبورًا، مُقبلًا على الحياة بعزيمة وثبات.. بُنَيَّ لا أجد لك –وأنا الذي خَبرتُ الحياة وشربتُ من كؤوس همومها مرات ومرات– إلا هذه الكلمات: إن أكبر موقد لنيران المشاعر وأعظم مزلزل للوجدان، يأتي من الإبصار،

فأوصِيك بالابتعاد عن أنظارها، ففي ذلك شفاء لِمَا في فؤادك وفؤادها.. أعلم أنه شاق عليك يا بُنَيَّ، لكن يجب أن تكون مثل البرج الذي يصمد في وجه الزوبعة الغاضبة، وإلا انكسرت وساءت أحوالك.. ابتعد قليلًا واترك لنفسك وقتًا للراحة، وخطِّط لبقية حياتك، فالبكاء على الأطلال لن يفيدك في شيء، والضجر من الأقدار ليس في صالحك.. عُدْ إلى البيت قويًّا بشوشًا، واجعل لحظتك هاته، مطلع حياة جديدة، وفَّقك الله يا بني، وإلى اللقاء.. قال هذا وانصرف.

استأذن قسيم شاطئ البحر على المغادرة، ثم ولَّى قاصدًا البيت، وبعد قَطْعه عدة أمتار، لمح حشدًا من الناس يتجمهرون وسط الطريق الفاصل بين شاطئ البحر وبين المساكن والأحياء، وعلى الرصيف سيارة مركونة في وضعية انحراف..

المشهد يوحي بأنه حادث سير خطير.. هُرِع مهرولًا لمعاينة الحادث.. اقترب من المكان فسمع أحدهم يقول: منذ مدة وهما يتسابقان ذهابًا وإيابًا على طول هذا الطريق.. لقد كانا يسوقان بتهوُّر وبسرعة لا تخطر على بال، فانحرفت بأحدهما سيارته، ليصعد على الرصيف ويصطدم بهذه المرأة المسكينة، ثم يترك سيارته ويفرُّ هاربًا..

تسلَّل قسيم بين الناس، فإذا به يلمح امرأة مُمدَّدة على ظهرها وقد غطَّى الدم وجهها النازل من ناصيتها المنشقة..

خاطرةٌ تهُبُّ إلى ذهنه مفادها أن المرأة لا يمكن أن تكون من معارفه في هذا المكان، فأخذ يتألَّم لحالها ويستفسر إن كان أحدهم قد طلب سيارة إسعاف.. وهو يعاود النظر إليها لفت انتباهه خاتمها الذي تحمله في أصبعها، وكذا لون لباسها الذي لم يبرح ذاكرته بعد..

عرف أنها هي، فصاح وسط الجميع: إنها هي، هي بالذات، إنها لمياء، ابنة خالي.. وانحنى إليها ليطمئن عليها، فإذا بالنَّفَس ما زال يلازمها..

وضع يده اليسرى خلف رأسها ورفعها قليلًا إليه، ثم ناداها باسمها وهو يرتجف.. فتحت عينيها قليلًا ثم قالت بصوت خافت متقطِّع يصارع الزفرات والشهقات، لم يكد يسمعه لو لم يُقرِّب أذنه إلى فيها..

قالت:

- قسيم، أنا راحلة لا محالة.. قل له... أن يعتني... بالولد، أما أنت... فعِش حياتك... ولا تجعل... مآسي الماضي... تقف حاجزًا في طريقك... أرجوك... ابحث عمَّن تحبك وتحبها... أما أنا... فسأحمل ما في قلبي... إلى هناك..

ردَّ بصوت مضطرب وعيناه في عينيها اللتين انطبقتا قليلًا، ردَّ والدموع تنهمر من عينيه:

- يستحيل أن يجد حبي لغيرك سبيلًا، أبدًا، أبدًا.

ثم سمعها تُتمتِمُ بالشهادتين، تلاها ارتخاء في أطرافها وانقطاع لِنَفَسها.

في هذه اللحظة، كان أحد الموثِّقين يلتقط صورًا للحادث، فصادف أن التقط صورة لقسيم وهو يتابع لحظة احتضار لمياء، فكان المشهد نفسه يتكرَّر في صورتين، صورةُ فَرحٍ على استقبال الحياة في البداية، وصورةُ حُزنٍ على توديع الحياة في النهاية.

# المحتويات


إهداء ..... 5

درسٌ من الحياة ..... 6

من تحتِ الأنقاض ..... 21

الحلمُ بالشّراء ..... 33

بين القساوة والخيانة ..... 45

المُكافأة ..... 57

حديقةُ الحَزانى ..... 71

في شَرَكِ المعاناةِ ..... 85

مسحُ النّزاد ..... 105

مآل التّمرُّد ..... 121

مَشهدٌ في صورتينِ ..... 149

المحتويات ..... 171